

66

حديث الغر

DATE DUE

3 1142 02773 7645



BOBST LIBRARY

المكتبة الأهلية . بمصر

AL- RĀFI'Ī, MUṢṬAFĀ ṢĀDIQ

حَدِيثُ الْقَمَرِ

HADĪTH AL-QAMAR

بقلم

مصطفى الرافعي

كتب على نمط خاص يجعل طالب الاطلاع اذ يربى فيه ملكة التخيل التي هي أصل في البلاغة ولا بلاغة بدونها

٤٤٤٤٤٤٤٤

١٣٤٠ هـ — الطبعة الثانية — ١٩٢٢ م

مصححة مضافاً إليها بعض شروح

مطبعة المقاهدي بجوار قصر الجمالية بمصر

YAZIGI & FARAH

R. João Briccola, 19-Sobre-loja

(ANTIGA DO ROSARIO)

Caixa Postal, 1993 - Aleph - Cent. 3702

SAO PAULO

مكتبة مطبعتة واذوايت الكتابية
المكتبة الاهلية
بشارع عميد القنير - بصره

ترسل (بيان) قاعة كتبها - مجاناً - لمن يطلبه

وعنوانها : صندوق البوسطة ٩١٨

BJ

1291

.R3

1922

C.1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٤٤٤٤٤٤

غرض الكتاب

هذه مقالة صرفتُ فيها وجه الحديث الى القمر
وبعثتُ الى الكون في أشعة الفجر كلماتها.

ولقد كان القمر بضياءه كأنه ينبوعٌ يتفجر في نفسي
فكنت أشعر بمعاني هذا الحديث كما يشعر الظانُّ اللّهْفُ
قد بلغَ الرِّيَّ وتندى الماء على كبدِه (١) فأحسَّ بروحه
تراجع كأنما تحدرها قطراتُ الماء.

ونشرتُ على خيوط القمر ليلاً من ليالي الجمالِ دونه
شبابُ الشاعر الغزل (٢) إذ يمتدُّ مع الحَظّ فانتبه الحسناء
ولا يزال يتلأأُ كلما استطار في آفاقه ابتسامها.

(١) كناية عن بل الظمأ (٢) أي الشباب

وكنت أرى الطبيعة^(١) وقد شفّت لعيني كأنها
أخرجت حقائقها لتفسلها من ظنون الناس وأوهامهم بهذا
الضياء المتبسّط المرتعد كأنما هو عرق يرفض من جبين
السماء وقد تخشعت من جلال الله وخشيته إذ يتجلى عليها .
فما فرغت من تصوير الأثر الذي تركته تلك الرؤية في
نفسي حتى رأيت هذه المقالة في يدي وكأنني أحملها رسالة
تعزية من الطبيعة الى العالم .

كتبتها وأنا أرجو أن تكون الطبيعة قد أوحى اليّ
بقطعة من مناجاة الانبياء التي كانت تسهل في سكون
الليل فيعيها كأنه ذا كرة الدهر . وأن تكون قد بثت في
أفاضي صدّي من تلك النغمات الأولى التي كان يتغنّى بها
أطفال الانسانية^(٢) فتخرج من أفواههم مزوجة بحلاوة

(١) حيثما أطلقنا (الطبيعة) فيما نكتب فاعلمنا نريد بها هذا
النظام الالهى الذي طبعت عليه الكائنات أو الكائنات نفسها
على هذا النظام (٢) أهل الفطرة وسلامة القلب

الايان الفطري ، وتذهب في السماء متهادية كأنها طائفة
بروح من اطمئنان قلوبهم ، وتسيل في ضوء الصباح وظل
الشمس ونور القمر كأنها في جمال هذه الطبيعة أفكار طيور
مُغرِّدة تدور على ألسنتها .

وكتبتها وأنا أأمل أن تكون الطبيعة قد ألفت في
معانيها بذوراً من عناصر التحوُّل الأخلاقي تزكو^(١) في
هذه القلوب الحيوانية التي لو نُقلت الى جوارح البهائم
لعاثت بها . . . وهذه النفوس التي تذلل لأحقر من في
الأرض ولا تتور الا على السماء ، وهذه العقول التي تحاول
أن تكتب للروح تاريخاً أرضياً يتدى وينتهي في التراب^(٢)
فتكون الحقيقة الالهية التي لا يدركها الانسان بسبيل
من الوهم الانساني الذي لا يدرك الحقيقة .

وكتبتها وأنا أطمع أن تكون الطبيعة قد نفخت
فيها نسمة الحياة للعواطف الميتة المذرَّجة في أكفان من
(١) أي تنمو (٢) هي عقول الذين لا يؤمنون بشيء وراء العقل

الحوادث الدينية^(١). فان هموم العيش لا تُميت من
عواطف القلوب الا تلك التي لا تعرف كيف تستمدُّ
الحياة من روح الطبيعة، وانما يكون استمدادها من مادتها
فتحيا بخبرٍ وتموت بخبرٍ، وقد تمضي كالوحش الذي يرميه
الصائد ولا يُصميه^(٢)، فينفِرُ حاملاً جنبه وفي جرحه
الموت والحياة معاً.

وكتبتها أتناول ألفاظها من تحت لساني^(٣) وأكشف
من قلبي معانيها وأنفُضُ عليها ألوان الطبيعة التي تصوّر
أحلام النفس وخيالاتها. وأنا أرجو أن أكون قد وضعتُ
لطلبة الانشاء المتطلّعين الى هذا الأسلوب أمثلةً من علم
التصوّر الكتابي الذي يُوضَعُ أمثلته ولا توضع قواعده،
لان هذه القواعد في جملتها إلهامٌ ينتهي الى الاحساس،
وإحساسٌ ينتهي الى الذوق، وذوقٌ يفيض الإحساس
(١) عواطف أهل الشهوات (٢) أي لا يقتله (٣) كناية عن
عدم التكلف

والإلهام على الكتابة جميعاً فيترك فيها حياة كحياة الجمال
لا تُدخِلُ الروحَ حتى تستبدَّ بها ولا تتصلُّ بالقلب حتى
تستحوِزَ عليه فتكون له كأنها فكره في ذاته .

وكل علوم البلاغة إنما تدور على شرح أمثلة بليغة
وغير بليغة فما من كاتب يحاول أن يستفيد تصوّره من
هذه العلوم على أن يُنزلها في ذلك منزلة الأصول
والضوابط الا انتهى الى ملكة عامية تتصل منه بعقل
جامد كأنه غلاف لفظي نسجته القواعد والأمثال ، فالى
أن يعقد الموت لسانه لا تكون قيمة عمره قد أُرْبِتْ في
البلاغة على ثمن كتاب من كتب علوم البلاغة . . . ! ولا
غرّو فان من ضلال العقل أن يعمل المرء لمقدّمات متسلسلة
يُنتج بعضها بعضاً وليس لمجموعها نتيجة .

وحسب مثل هذا عقاباً (بليغاً) في رجّع أمره ^(١) أنه
لا يزال ينشر أذنيه على البلاغة طمعاً فيها وهو موقن

باليأس منها وذلك ضَرْبٌ من المَطْمَعِ لا تُبْتَلَى النفوس
بأشدَّ منه حتى ان نفس الأئيم الذي انسلخ من الفضيلة
لتَقَرُّ على كثير من أنواع العذاب ولا يعذبها شيء كروية
هذا المجرم للفضيلة في غيره وهو يعرف أنه لن يستطيع
أن يُحرزها لنفسه .

البلاغة التي حار العلماء في تعريفها على كثرة ماخطوا
لا تعدو كلمتين : قوة التصور والقوة على ضبط النسبة بين
الخيال والحقيقة . وهما صفتان من قوَى الخلق تقابلان
الإبداع والنظام في الطبيعة . وبهما صار أفراد الشعراء
والكتاب^(١) يخلقون الأمم التاريخية خلقاً وربَّ كلمة من
أحدهم تلبّد تاريخ جيل .

فاذا مُسِخ التصور في الانشاء فجاء كتصور المريض .
وشرد الخيال فذهب كخيال المجانين وأدير الانشاء بعد
ذلك على أنه بليغ فاعلم انها بلاغة العصور الذاهبة في

(١) أي المتفردون

الانحلال بآفات الاجتماع وأمراضه فيكون طابعها في
الاصطلاح مرصاً من نفسها . ولقد فشا ذلك في العربية
حوال القرن الخامس للهجرة الى عهدنا فتم عالم من
الشعراء والكتاب بلا شعر ولا كتابة^(١)

وما البليغ الا ذلك الذي يستطيع ان يؤتيك طبائع
الاشياء - التي تجهلها - في غير صورها ثم أنت لا تعرفها
من كلامه الا في صورها فكأنه ناسب بين قوتها وضعفك
بصناعته وسحره اذ يمازجها بخيال قوي كالعقل يوازن
ضعفك ، وحقيقة ضعيفة كالقلب توازن قوتها . وهو لا
يتسلط على طبيعتها الا بتصوره ولا يستهوى طبيعتك الا
بقدرته على ضبط النسبة بينك وبينها .

فالبلغاء هم ارواح الأديان والشرائع والعبادات وهم في

(١) ستظهر فلسفة هذا التاريخ مبسوفة في موضعها من
المجلد الرابع من كتابنا « تاريخ آداب العرب » عند القول على
الانشاء العربي وأساليبه وتاريخه .

الأرض السنة السماء والأرض، وإذا شهد عصر من العصور
أمةً ليس فيها بليغ فذلك هو العصر الذي يكون تاريخاً
صحيحاً لا ضعف طبائع الأمم .

وكتبتُ هذه المقالة وبحسبي منها ان يكون عند
الحقيقة ذُخْرُها ، وعند الجمال شكرُها ، وعند الله أجرُها .
مصطفى صادق الرافعي

الفصل الاول

أيها القمر !

الآن وقد أظلم الليل وبدأت النجومُ تنضح وجهَ
الطبيعة التي أعيت من طول ما انبعثت في النهار برشاش
من النور الندي يتحدَّر قطراتٍ دقيقةً منتشرةً كأنها في
رَوْحِها أنفاسٌ تتثائب بها الامواج المستيقظة في بحر
النسيان ذلك الخِضْمُ الدهريُّ الذي تجري فيه السفنُ
الكبيرة من قلوب عشاق مهجورين برحت بهم الآلامُ ،
والزوارقُ الصغيرة من قلوب أطفال مساكينَ تنزعها
منهم الأحلامُ ، تلك تحمل الى الغيب تعباً وترحاً ، وهذه
لعباً وفرحاً ، والغيب كسجلِ أسماء الموتى تختلف فيه
الألقاب ، وتباین الاحساب والأنسَاب ، وتتنافر معاني
الشَّيب من معاني الشباب ، وهو ^(١) يُعجَب من الذين يسمونه

(١) أي سجل أسماء الموتى

بغير اسمه ولا يعلمون انه كتاب في تاريخ عصر من
عصور التراب .

والآن وقد بدأت الطبيعة تنهد كأنها تنفس بعض
اكدارها ، أوهي تملئ في الكتاب الأسود^(١) أخبار
نهارها ، وبدأ قلبي يتنفس معها كأنه ليس منها قطعة
صغرى ، بل طبيعة أخرى ، والله ما أكبر قلباً يسع الحب
من قبلة اللقاء الى ذكراها ، ومن حياة الصبي الاولى ما
يكون من الجنة أو النار^(٢) في آخرها ، ان هذا لهوى
القلب الذي ترى فيه الطبيعة كتاب دينها المقدس . فإذا
لحق العاشق الذي يحملة بربه تناولته وهي جائية كأنها في
صلاة الحزن ثم قبلته متلففة ثم قلبته متخشعة ثم أودعته
في مكتبة الابد لانه تاريخ قلب آخر^(٣) بل هو جزء من
الموسوعات الكبرى التي يدون فيها الدهر تاريخ النفس
(١) كناية عن الليل (٢) الوصل او الهجر (٣) تاريخ القلب
الذي أحبه

الانسانية على ترتيب بعينه تعلم الناس منه أن يبدؤوا لغاتهم
جميعاً بحرف (الألف) لا لأنه من أقصى الخلق . . . بل
لأنه من أقصى القلب ، بل لأنه من أقصى التاريخ ، بل
لأنه أول اسم (آدم) ذلك العلم الأول في تاريخ الحب .
والآن وقد رقت صفحة السماء رقعة المنديل ، أبلتة
قبل العاشق في إبعاد طويل ، أو هجر غير جميل ، وتلاآت
النجوم كالابتسام الحائر على شفهي الحسناء البخيلة حيرة
القطرة من الندى إذ تلمع في نور الضحى بين ورقتين
من الورد ، وأقبل الفضاء يشرق من أحد جوانبه كالقلب
الحزين حين ينبع فيه الأمل . ومرت النسائم بليلاً كأنها
قطعت رقيقة تناثرت في الهواء من غمامة ممزقة ، وأقبلت كل
نفس شجية^(١) ترسل آمالها الى نفس اخرى كأن الآمال
بينها أحلام اليقظة ، ونظر الحزين في نفسه ، والعاشق في
قلبه ، ونام قوم قد خلت جنوبهم فليس لهم نفوس ولا

قلوب ، ولبس الكونُ تاجه العظيم فأشرق عليه القمر .
والآن وقد طلعتَ أيها القمر تملأ الدنيا أحلاماً
وتُشرف على الارض كأنك روح النهار الميت ما ينفكُ
يتلمس جوانب السماء حتى يجد منها منفذاً فيغيب . فهامُ
أبتك نجوايَ أيها الروح المعذب وأطرح من أشعتك على
قلبي لعلِّي أتبين منبع الدمعة التي فيه فأنزفها ، إن روعي
لا تزال في مذهب الحسن كأنها يُجهش للبكاء (١) مادامت
هذه الدمعة فيه تجيشُ وتبتدر . ولكن إذا أنا سفتحها
وتعلقت بأشعتك الطويلة المسترسلة كأنها معنى غزلي يحمله
النظر الفاتر ، فلا تلقها على الارض أيها القمر فإن الارض
لا تقُدس البكاء ، وكل دموع الناس لا تبُلُ ظمأً النسيان ولو
انحدرت كالسيل يدفع بعضها بعضاً

ارأيت أيها القمر هذا النهر الصافي الذي يجري كأنه
دموع السحر من أجفانٍ ينفتُ فيها هاروت وماروت ،

(١) تهيأ للبكاء

ويطرد بجملته كأنه قطعة من السماء هاربة في الأرض .
وهل تبصر في شاطئه تلك الشجرة الناضرة الممتلئة
بالاوراق كأنها مكتبة يتصفحها الهواء ؟ هذه هي مثال
الفلسفة الطبيعية فكل حكيم لا ينبت على شاطئ الدموع
الظاهرة فهو فيلسوف جاف كأنه مصنوع من جلود
الكتب . وما دمعتي إلا النهر الذي نبت في شاطئه وهي
أطهر شيء وأصفاه لأنها مخلوقة من ثلاثة عناصر تقابل
العناصر السماوية . من الحب الذي يقابل عنصر النار ومن اللين
الذي يقابل عنصر الهواء ومن البكاء الذي يقابل عنصر الماء .
ليس كل من عصّر عينيه فقد بكى . ان البكاء لا أشرف
من ذلك . وكما يكون الضحك أحياناً حركة في الأفواه
تبعثها العادة كحركة الحواس الغليظة فيضحك المرء وقلبه
صامت متعبس ، كذلك يكون من البكاء ما هو حلم
الاسى . لأن في العين حاسة لا بد من تمرينها أحياناً تسمى
حاسة الدموع .

وما إن لقيت باكيًا الأرايت وجهه مقبلا عليَّ كأنه
يسألني . ترى من أين يُدبَح الانسان اذا كانت دموعه هي
دماء روحه ؛ ذلك لان الدموع لم تُعد على طبيعتها دموعاً
بل هي علامات الألم أو السخط . الألم من المخلوق والسخط
على الخالق فهي الفاظ من لغة العجز قد تكون أفصح منها
في الأداء كلمات السّفاه والغبيظ والحنق وما اليها ،
ولكنّ الباكي بها لا يجد من قوة الجراءة ما يرفع
صوته من حفرة الخلق التي لا تمتليء مع أن نفس الحرّ تدُّ^(١)
فيها كل يوم الفاظاً كثيرة من عبارات الذل والتمليق فلا
ينطق بها ، وتند فيها نفس الذليل كل الفاظ الإيذاء والأثفة
فلا ينطق بواحدة منها . وذلك لعجز الباكي ثم لضعف
إحساسه بالذل السياسي أو لضعف قلبه بالتقوى التاريخية
فيرفع صوت روحه والروح تتكلم من العين بهذه المعاني
السائلة التي نسميها الدموع .

(١) الوادِ الدفن على الحياة ومنه وأد البنات في الجاهلية

أريد أن أبكي بكائي الطبيعي أيها القمر لأنه يخيل
الي أن حقائق كثيرة تغتسل بدموعي . واني لا أكون في
حاجة الى البكاء الا حين تكون هي في حاجة الى الدموع .
ولقد شعرت مراراً بمحركة عقلي في تصفح الاسفار ،
واضطراب نفسي في متاحف الآثار . واختلاج قلبي في
معابد الطبيعة التي قامت الجبال في بنائها لأنها أحجار ، فما
أفدت من كل ذلك ما أفدته من دمعة تفور في صبيها .
كأنها روح عاشق يطاردها الموت بين يدي حبيها ، فان في
هذه الدمعة ثواب كل آلامى ، ويقظة كل الحقائق من احلامى .
وما زلت حائراً في امر مُشْتَبِه لا أُصِيب الوجه فيه
فلا أدري اذا كانت هذه الدموع المتساقطة تنقضُّ من
بناء الحياة لينهد ، أو هي تضاف اليه ليشدد . فاني أرى
أقواماً يَحْيَوْنَ بالدموع وآخرين يموتون بها . ولعل عين
الانسان ملئت بالدموع من أصل الفطرة لتكون منها
خنادقٌ مستفيضة حول الروح فلا يفتحمها الفكر ولا

يرى أبدأً إلاّ ظاهرها ، ولولا ذلك ما بقيت الروح من
أمر الله . أو كسنا نرى الذين سيكون كثيراً من الحكماء
والجهال على السواء يؤملون ان يدرکوا من اسرار الروح
كثيراً اذ يرون تلك الخنادق قد أخذت تمجُّ ما فيها فكأنهم
بالماء قد غيض ، وكأنهم بالامر قد قضى ؛

ولكن الانسان ليس إله نفسه فهو يبكى صابراً
ويصبر باكياً ومتى انكشفت أرض الخنادق الروحية
ظهرت فيها حفرة القبر وكانت آخر دمة تجفُّ منها هي
دمة الموت .

بيد أن الحقائق التي تهى للبائسين ذلك الامل بكثرة
ما تفيض أعينهم من الدمع هي في رأى الناس علم وفلسفة
لان الجهل في الانسان لاحد له فكل ما ظفر به عده حداً
علمياً . أو لا ترى ان أجمل ما في الديانات والشرائع قد
تحول الى حجارة البيع والصوامع والمساجد والأضرحة
والجبوس وكثير من مثلها حتى صارت هذه الأبنية تفهم

الناس من ضروب المعاني أكثر مما تفهمهم الكتب السماوية
في الارض والارضية في السماء ؛ (١)

مالي ولك أيها القمر لا أحب أن أفيض عليك دمعي
فقد ترى فيها أشعة كثيرة من الوان الأسرار المختلفة . بل
أنا أراها في قلبي وقد أشتمل بها الخيال الحزين . خيال هذا
الأمَل الذي يسميه الناس (الحب) وتسميه الطبيعة
(الحياة المعذبة) لان الناس قد مضوا على أن لا يعرفوا
الحقيقة الا بأوصافها ولا يعرفوا من أوصافها الا ما يتعرف
ليها من ظاهرها الجميل . أما باطن الحقيقة الذي يحتوي
السِّرَّ المحزن فهذا يعرفه من يفهم لغة الطبيعة وما لغتها الا
أفعالها .

وأنت فاذا أردت ان تدرس علم البلاغة من هذه اللغة
الطبيعية فادرس المصائب والآلام والأحزان . انها هي أقانيم

(١) الكتب السماوية كتب الاديان والارضية كتب القوانين

ونحوها

البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. وانك ان درستها
وتدبرت شواهد الصريحة التي لم يصنعها^(١) رواها ولم
يجئوا فيها بـمـنـكـر القول وزوره أصبحت أفصح من
ينطق عنها في هؤلاء البكم الذين يقرأ أحدهم صفحة الزهر
بعينين في أنفه^(٢)... ولا يستحي الغبي أن يقول لك ان
في الزهرة معنى جميلاً كأن في أنفه عقلا من العقول
العشرة...^(٣)

فمن أحب ورأى حبيته من فرط إجلاله إياها
كأنها خيال ملك يتمثل له في حلم من أحلام الجنه. ورأى
في عينها صفاء الشريعة السماوية. وفي خديها توقد

(١) لم يخلقوها (٢) منخرية (٣) هي من مزاعم ارسطو
في فلسفته فزعم ان المادة استفادت وجودها من الواجب الوجود
وان واسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال وهذا العقل
هو العاشر والتسعة قبله يرقى بعضها الى بعض الى العقل الاول
وهو اول صادر عن الواجب

الفكر الإلهي العظيم. ^(١) وعلى شفيتها احمرار الشفق الذي
يخيّل للعاشق دائماً ان شمس روحه تكاد تُمسى . وراها في
جملة الجمال تمثال الفنّ الإلهي الخالد الذي يُدرَس بالفكر
والتأمل لا بالحسّ والتأمُّس فأطاعها ارادته واستند اليها
كأنها قوته وعاش بها كأنها روحه ، فذلك هو الذي يشعر
بحقيقة الحب ويفهم معناه السماوي وهو الذي يقول لك
صادقاً مصدوقاً: إن كل لفظه من لغة الطبيعة في تفسير
معنى الحب كأنها صلصلة ^(٢) الملك الذي يفجأ الأنبياء
بالوحي في أول العهد بالرسالة .

ليس كل ما يعجبك يرضيك ولكن كل ما يرضيك
يعجبك فالجمال الوصفي الذي يقاس بالنظر ويخرج منه
الفكر بنسبة هندسية جمالٌ صحيح وحرّيٌّ أن يكون
معجباً . ولكنه على كل حال بناءً جسمي كالقصر المشيد الذي

(١) توصف افكار النوابع بالتوقد لان الفكر يستوقد المادة
الفسفورية في الدماغ (٢) الصلصلة صوت السلاح ونحوه كالجرس

يعجب الفقير المُعْدِم فيتمناه فان هو صار له خالياً لم يرضه
لأنه لا يلتحف سقوفه المموّهة. ولا يفرش أرضه الموطأة
ولا يلبس جدرانه الموشاة ولا يقتات من هوائه الطلق.
أما الجمال الذي يرضى فهو الذي يشف عن صورة روحك
بغير ما يخيبها لك ماء الحياة العكر - هذا الذي لا يشف
عن شيء ولا يزال يضطرب فيجعل شبحك في اختلاطه
كأشباح البهائم يُخلق كل منها خلقاً جديداً كلما ضربت
البهائم في الماء بأرجلها. فترى من ذلك الجمال كأن ملكا
هبط عليك من السماء وفي يده مرآة فنظرت فإذا صورتك
بعينها ولكنها في يد ملك.

وقليل أن يجد الناس مثالا من ذلك الجمال فكثير
منهم يجحدونه ويرونه ضرباً من الوصف الشعري الذي
يظهر في خلقه وابرازه مقدار ما في الشعراء من روح
الله. وإنما يجحد مثال الجمال الكامل من لا يستطيع أن
يكون مثال الحب الكامل. وإذا كانت المرآة قد علاها

الصدأ فكيف يعلوها الوجه الجميل . وكيف تخلصُ الى
روحك من طين هذه الكأس الزجاجية (المرأة الصدئة)
نشوةُ الجمال ولو سكبتَ فيها حور الجنة كل ما في
خدودها ؟

ولقد قيل إن قوماً من العرب ترحلوا عن بعض
منازلهم فكان من أنسائهم ^(١) قطعة مرآة صقيلة كأنها وجه
المليحة التي نسيها فمرت بها ضبعُ كأسأم ما خلق الله قبحَ
طلعة وجهامةٍ منظرٍ حتى كأن في وجهها تاريخَ الجيف التي
اغتذت بها !!! فوقفت عليها تعجب من إشراقها وسنائها
وما كادت تنظر فيها حتى راعها وجهها ولا عهد لها برويته
من قبل لأن الله رحيم ومن رحمته أن لا تعرف الوحوش
أنها وحوش وأن لا تجد أسباب هذه المعرفة . فانقبضت

(١) الانساء ما ينساه القوم المترحلون من هنات المتاع وكان
العرب اذا تحملوه قالوا انظروا أنساءكم يريدون هذا .

الضبع وزوت وجهها وقالت : من شر ما اطرحك أهلك
أيها المرأة... (١)

فحال هذه الضبع الذي جحدته المرأة كما مجحد الكافر
رحمة الله . وحسنها الذي أحالته المرأة قبلاً كما يحيل الطبع
التيم كل حسنة تتصل به الى سيئة . هما أشبه شيء بالعقل
والقلب في الحب الأخرق الذي يجب بحواسه فتجوع روحه
وتشبع وتعتلّ بالتخمة أيضاً (٢) وكم في الناس من مثل هذه
الضبع وكم في الحسان من مثل تلك المرأة

أحسُّ وما أحسب الاحساس إلا نكتة صافية في
القلب تقابل نكتة العين التي يكون بها البصر فكل ما
انطبع في هذه انطبع في تلك لكي تكون الروح بين مرأتين
فيسهل عليهما أن تدرس الحقيقة بالمقابلة فاذا نزل الشاعر

(١) مما وضعه العامة ان عجوزا فانية نظرت في المرأة فراعها
وجهها فقالت ان اهل هذا الزمان لا يحسنون صناعة المرأة كما كان
يحسن اهل زمننا... (٢) التخمة كظة البطن وامتلاؤه

الدقيقُ الحِسِّ بروضة غناء نَضرة أحس بقلبه كأنما يخضُرُّ
بعد يُدسُّ . وإذا أطلَّ في الغدير الصافي أحسَّ معنى الماء
ينسابُ في عروقه . وإذا نظر الى وجه الجميلة الحسنة
فماذا لا يحس أن قلبه امتلاً جماًلاً حتى كأنه لا يعشق منها
الا شيئاً في داخله نفسه ؟

بلى وأكثر من ذلك فإن الشاعر ليكتب عن
يحبها فيرى كأنه ينفخ في كل كلمة معنى من الحياة لأنه لا
يكتب كلاماً بل يخط صورة قلبه . والعواطف الحية تبقى
حيةً ولو كانت مرسومة لأنها لا تجتمع في شكها الذي
تنتهي إليه إلا بعد أن تمر في أدوار الحياة فتألفها الأرواح
وتصير كاللفظ المأنوس ما هو إلا أن يذكر حتى ترى
معناه للذهن ماثلاً

بلى ولقد يُخيلُ الى أيها القمر الجميل حين أكتب عن
أهواها أنك لفظ في ألفاظي تطلع من المداد . فاذا قلت
« وجهها » فهل تظن هذا اللفظ الذي هو جملة الجمال الا قرأ

في الكلام . واذاقلت « ابتسامها » فهل ترى هذه الحروف
التي تتنفس على القلب الا أشعة الفجر الندى واذاقلت
« هي » فهل ترى من هي الا « ضمير » الطبيعة التي تأخذ
عنها الانسانيه دينها ؟

آه لو تعلم أيها القمر من « هي » ؟

الفصل الثاني

وآه إن في « ضمير الطبيعة »^(١) وفي المعنى المستتر في
الهواء والياء لسراً من الحب تتجدد في الناس معانيه المعضلة
كأن فيه حياة غريبة تغذوه بتلك المعاني فهو في علم الروح
كالروح نفسها في علم الإنسان .

وإذا تناولته نفس المحب وطفقت تعالجه رأيت المحب
ذاهلاً كأنه حي بلا نفس . وأنست من نظره عمقاً بعيد الغور
كأنه الطريق الذي مرت منه نفسه . فهل يمكن أن يكون
في يقظة هذا الإنسان نوع من الحلم ؟

لقد غفلت الآن عن نفسي هنيهةً أو هي غفلت
عني فما نهني الا اضطرابٌ ينتفض له قلبي كأن حواسي كلها
نهضت تستقبل روعي وقد انقلبت من سفر طويل تحف بها
الحاشية العريضة من الأفكار والآمال .

(١) أي هي المشار إليها في خاتمة الفصل الأول ولفظ هي من الضمائر

فقلقتهنَّ وجعلتْ تُطْرِفُ كل حاسة بتحفة نفيسة من
هداياها وهنَّ يتناهنها وأنا في ذلك كأني مقسم إلى حزب
أو مجتمع من حزب ، وما لبث أن ردتني إلى وحدتي النفسية
حنيفٌ كنجوى النسيم للزهر وليس بها ، وكصوت القبلة
المختلصة على حياءٍ وليس بها . وكأنه آهة رقيقة انبعثت من
شفتي حورية سماوية فأرسلتها الملائكة إلى الأرض لانها دار
الفتنة فزالتي على وجهها (١) تتصفح كل وردة وكل خد كأنه
من الوردة وكل شفة كأنها من الخد حتى رأيت (ليلى) وهي
تبتسم فاخبتأت في شفيتها وما تشكُّ من طيبهما انهارت
إلى صاحبتهما في الجنة .

سرى هذا الحفيف قليلا قليلا فلا والله ما منه أشوة الحجر
ولانفتة السحر ولا رجفة الطرب . ثم سرى قليلا قليلا فهاهو
الآن أصاب قلبي حتى انتفضت كأن قبله حارة انطبعت
عليه ومسته بشفتيها الرقيقتين . فكانت هذه الطرفة هدية

(١) اي زاهية

الروح الى القلب .

وما أسرع ما اجتمعت اشتات الحياة بعد أن
توزعتْها الآمال لتنغمس في بقايا تلك القُبلة العُدبة التي صبها
الهوى على القلب صباً كما تتناول السعادة قلب طفل حزين
فتغسله بابتسامة من أمه . وسرعان ما انتهت بعد ذلك فاذا أنا
مستيقظ أو كالمستيقظ .

لا أدري أيها القمر كم هي تلك الفترة من حساب
الزمن فاني لم أنظر في ساعتي او بالحري لم أنظر في وجه
التاريخ . فقد أبعض الساعة لانها ميزان يبين مقدار السم
البطيء الذي ينفثه في الحياة ذنب (عقربها) بتلك الحمة^١
المسددة الى الساعات والدقائق .

ودع الناس يزنون بها الحياة لا الموت فان كل شيء في
يد الانسان أصبح لا يخرج منها الا بئس ومقدار . ولو عدَّ
الله عليهم حب الغمام أو حب الارض كما يعدُّ بعضهم على

(١) الحمة ابرة ذنب العقرب

بعض لهلكوا جميعاً كما يهلك اليوم بعضهم بعضاً . ولو
تدبرت اختلاف أثمان الوقت في هذه الاجسام التي تشبه
الحوانيت فيما تتعارض من تجارة الحياة لقضيت عجباً من
الانسان فرب دقيقة واحدة من حياة رجل تُبذل في
ثمنها حياةً بتمامها من رجل أو رجال .
ورب يوم يبيعه رجل ^(١) فلا يساوم عليه بأكثر
من نظرة ازدراء ويوم آخر تُبذل فيه كل أزمنة التاريخ
المجهولة وكثير من أيامه المعدودة ليملاً بعظمته ذاكرة
الزمن الخالية .

ولى صديق فيلسوف يضحك عالياً ملء فمه حتى ليخيل
الي أنه ولد في يوم رعد قاصف . . . وذلك كلما حدث عن صاحب
له واعدّه يوماً أن يوافيه في ساعة معينة ثم وافاه الفيلسوف
وقد مرت الساعة ولحقت بها أختها . فقال صاحبه متماملاً
(١) يقال أباعه اذا عرضه للبيع وباعه اذا وقعت الصفقة
وفرغ منه

أو ليس . . . فقطع عليه صاحبنا ما وراء السين وقال دعني
من اسم هذا الفعل الناقص وخبره . حينما يحرص الزمن على
أن لا يخطيء في حسابنا نحصر على أن لا يخطيء في حسابه .
وأنا لا أقول بإغفال الوقت وإرساله كأن نفاس المحتنق
لا تذهب من الحياة ولكن تذهب بها ! فان هذا قد كان
في عهد آبائنا وآباء التاريخ حين كان الليل ساعةً فلكيةً
للطبيعة وكانت النجوم أرقامها ثم كانت دقائقها صياح ديك
عند جماعة ونهيق حمار عند آخرين . . .

وإنما أريد أن لا يحاسب أحدنا ربه بالدقيقة فإذا
سبب له من وقته طرباً أو ساق إليه فرصةً حظ من
السعادة فليطرب وليتتهز من فورِهِ ولساعته وليأخذ ما آتاه
بقوة . فان الدقيقة الواحدة التي يتفلسف فيها وقتئذ ربما
كانت هي الطريق الذي تمر منه الفرصة الى ما وراء الزمان
فتلحق بالبعيد البعيد من الأبد حيث لا يتعلق بها شيء .

من أوهم ذلك الفيلسوف المفكر ولو خرجت روحه
تشتد وراءها عدواً

فاذا اتفقت لي هنيئة كالتى انتهت الآن بهدية الروح
الى القلب ^(١) فقلماً يعينى مقدارها بل أنا أحسبها كما أشاء
ولا أذكرها الا ذكراً الهرم يوم ميلاده بعد ان أسند
في حدود المئة ، فأعتبر مقدارها بسنة ومئة سنة ، ماشئت
من قليل وما شئت من كثير لانها أصبحت لى لا للتاريخ
ولا للساعة . وقد تكون لى ذكرى الحياة كلها فلا أسلمها
فى يد الغيب الامع آخر نفس من أنفاسى . ومع ذلك فانى
أحرص على أن أجعلها كأنها نفس من حياة الآخرة خرج
فى الحياة الدنيا فتظل روحى واقفة على الجسم لحظة وهى
قد فارقتة حتى يبرد أثر القبلة التى انطبعت على القلب
ويبرد الموت على جنبى ^(٢) وحينئذ لا يبقى لها فى الجسم شىء

(١) اى القبلة المذكورة فى صفحة ٢٩

(٢) يقال برد الموت على جنبه اذا انقضت هنيئة لموته

من الحب ولا أثرَ زفرةٍ من زفراته فتصعد متباطئة .
لست أشكُّ أن لليقظة أحلاماً والافاشان الذاكرة
إذن . وهل هي الا بيت الأحلام ؟

ولكن هذا البيت لا تقام فيه الحفلات الا اثناء الليل
فيموج بأهله حتي ما يرى العقل الا أشباحاً متفرقة كأنها
ماصفح عنه البلي^(١) من سطور كتاب قديم .

ومن الذي ينكر ان استبداد الملوك الطغاة وما اليه
من استرقاق الشعوب وتعبُد الضعفاء وظلم المساكين إنما
هي أحلام مزعجةٌ من أحلام الانسانية المستيقظة ؟

إنك لتشتري الذهب بالفضة وتستبدلُ الفضة من
الذهب . ولكن البيضاء ينبغي أن تكثر في حالتها حتى
تساوي في القيمة ما تشتريه بها أو ما تشتريها به من ذلك
المعدن النفيس . فأذا نقصت شيئاً قليلاً ولو درهماً بقي
الذهب سيِّداً وذهب النقص بالتكافؤ بين الرتبتين .

(١) ما تركه القدم

انظر أترى ثَمَّتْ شعباً مُسْتَعْبِداً يجتمع كما نتراكم
الأنقاض ويتفرق كما تَبَدَّدَ وليس منه في الاجتماع والتفرق
الاصورتان للخراب كالبؤمة والبؤمة في التشاؤم؛ انك
لتنظر الشعب الذي يحلم وهو مستيقظ. ألا تراه يعمل على
السخرّة ويطيع بالارادة أو بالوهم الذي صار له كالارادة .
ويشك في أنه يخاف من المستبد أو يخاف من أن يشك فيه
ويرجو على قوّته ما يرجوه الأجير أن يملك يده ساعةً
ليتناول بها لقيماتٍ يُقِمِّنْ صُلْبَهُ وأن ينتهي عمل يومه ليوقن
أنه إنسان كالناس له يَدٌ يملكها؟

هذا دأب الاستبداد ودأب الشعب الضعيف الذي
ابتليَ بالنقص عن مكافأة المستبد به ومساواته . وكثيراً
مألا يكون هذا النقص فيه الا بمقدار درهم واحد من
الفضة التي نزلت عن مقدار الذهب .

ولكن أين هذا الدرهم المتمم؛ درهم واحد من
الشعب يكون بالشعب كله ويجعله مالكاً بعد أن كان مملوكاً

وحا كما بعد ان كان مكوماً . ويُخرجه في التاريخ من رتبة الى رتبة .

هذا الدرهم هو الذي يبقى في يد القدر حتى يحيى يوم الحساب الذي وُعدت به الحرية المظلومة للانتصاف من ظالمها فيعطيه الله للشعب ولا يكون الارجلاً . ولكنه رجل الهي .

أفتدري من هو هذا الرجل الالهي ؟ هو الذي لا تعرفه الحياة ولا يعرفه الموت فلا يذل لأحدهما ، تبرج له الحياة فلا تغره ، ويتجهم له الموت فلا يضره ، ويبتلى بكل ما يسوء ويسر فلا يسوءه ولا يسره ،

هو رجل روحه في كفه^(١) - وهي العلامة الالهية فيه - فما إن يزال يثب بها من كل قبر يُحتفر له ولا يسقط

(١) تحتل هذه العبارة ضدين من المعنى : أن الرجل معرض للموت في كل وقت لان روحه على أعين الحادثات وأنه لا يموت كذلك لان روحه قد تركت له وهو المقصود هنا

أبدأ . وكل رجل الهي لا يخطو الا فوق القبور حتى إن
تاج الملك لينكشف عن رأس صاحب الجلالة اذا رآه
ويهوي الى الارض عساه يكون لتلك الأتفة قبراً ذهباً .
فان هذا الرجل الحق لا يجي الا عند ما تقضي السماء على
الارض بحكم من أحكامها . فيخلق الله بين جنبيه قلباً هو
المعنى المتجسم من ذلك الحكم .

وتسبق مجيئه أعاصيرٌ ومحنٌ تهبُّ على الارض فتقيم
الدنيا قيامة لا لالتواء الكون ولا لظلم الناس ولكن
لتمهد طريق الإعصار الساكن الذي يولد هادئاً منطويّاً على
حقيقته انطواء القبلة .

وانه ليخيّل اليّ أن هذه الأعاصير لا تُرسلُ على
الأرض الا لغرض واحد هو من أمر الله . وذلك أن
تسفي من كل جهة في الارض هبوةً من ترابها ، فتجمع منه
ملائكة الغضب كل ذرةٍ قد كتبت لها في الأزل أن تكون
في حنرة هذا البطل فينتزع قبره من الارض حتى لاموت

له ، وميمين الله لو فتحت له القبور كماها لما سقط في واحد
منها بل يظل يخوض الموت خوفاً وكأنه يغسل رجله
في نبع بارد . ولو شئت حوله جوانب الارض سعيراً يتلظى
لما عدت أن تكون ناراً ينضج بها غذاء تاريخه الشره .
ويُسلب ذوو العقول عقولهم حتى ينزاد قضاء الله قتي
نقد حكم السماء وتمت كلمة ربك واستغفرت الارض من
سيئتها التي نزل بها العقاب لأجلها ، أحسن ذلك الرجل انه
انسان وأنه بدأ يتعرف الحياة واستشعر ظلاماً يمر على نفسه
وهو لا يعرف أنه تراب قبره الذي يتساقط الى الارض
شيئاً فشيئاً حتى يجتمع . ثم لا يكون الا ريث يتهيأ منه
مقدار يواريه حتى يتبينه الموت إذ يغدو على الارض يتفقد
الحفر الخالية ويجمع منها الاوراق الذابلة التي تثرها القضاء
من شجرة الأعمار .

هذا هو الرجل الالهي الذي لا ينشئ لأنه الحق ولا
ينحرف لأنه العدل ولا يخاف لأنه البأس ولا يضعف لأنه

القوة ولا يحيف لأنه الإِ نِصاف ، ولو تعلّق به أهل الارض
جميعاً لمشي بهم مطمئناً لأنه في نفسه كقطعة من نظام السماء
الذي يجذب الارضَ في فضاءها

وهذا هو الرجل الذي يتعرّفُ به الناسُ معانيَ
الاصطلاحات النفسية القويمة كالشهامة والنجدة والصدق
والإِ خلاص والإِ يثار وما إليها من سائر المُفردات التي يتألف
منها معجمُ الفضيحة .

وهو في كل ذلك كأنه قاعدة من قواعد العلوم تُعطيك
المثَل الذي تريده لأنّها هي ذلك المثل لا لأنّها تعطى وتمنع .
فلو أريد ذلك الرجل على الخيانة واللؤم والجبن والتملق
والمداهنة ونحوها مما يكون في المتشبهين به لزادَ وفاء وكرماً
وإِ قداما وأنفةً وإباء كما يزيد طيبُ العود بإحراقه

أرأيتَ إِذن مقدار الدرهم الذي ينقص الشعبُ ؟ إن
أكبر رجال التاريخ لا يَزِنُ أكثر من درهم واحد في
ميزان الله .

ومن نكد الدنيا أنك لا تزال ترى المصلحين حيث
ترى نفسك لا تقدر منهم في مكان ثم لا يزيد الأمر معهم
الافساد إلا أنهم مصلحون بالتشبه والتقليد أو بقوة الارادة
أو بارادة القوة . وان احدهم يريد أن يكون مُصلحاً فيكونه
ثم يتغنى ان يعمل عمل المصلحين فلا يبرح يبحث عن
الفساد حتى يجده أو يوجد ، ثم يتخذ من الناس ما يتخذ
الإطباء في تجاريهم من العقاقير فيسحق طائفةً ويمزج
طائفةً ويذيب طائفةً ، كل هذا والشعب يقيه بنفسه من
التلوث بالقدر كالبذلة في نطاق المتبذل ، وهو دائمٌ على
أمره حتى تُسفر التجربة من مزيج ينظر فيه فيعرف من
النظرة الاولى أنه عرق الخيبة الذي تفصدت به من طول
ما أجهدها في عمله . . .

خذ أحد القوائين مثلاً واقراه ثم تدبره على عينك
ثم أرسله من يدك وأرسل الفاضل من روحك فأنهاستقلب
رجالاً يتسللون فأتبعهم قلبك وانظر أفعالهم وتغلغل

ما استطعت في مكامن النيات وأبعد إلى مطارح الظنون
وكن منهم فطنةً وحذاراً كأنك تستنيء أخبار كل نفس
من ملكيتها^(١). فإذا وعيت وتبينت واستبرأت كل
ماتشك فيه إلى منقطع اليقين فامسحهم أفاضاً كما كانوا
واجهد جهدك في فهمهم بعد فانك ستعجب من لغة قانونية
ووضعت لتفهم كما تثبت في أذهان واضعها لا كما تتحول في
أذهان الناس. وسرى ذلك القانون نفسه كأنه كتاب من
كتب النجاة المتأخرين قلماً تعرض فيها قاعدة إلا كان
أساسها «زيداً وعمراً وبكراً وخالداً...» فيدخل هؤلاء
المساكين من كل باب ليطبقوا على القاعدة لا لكي تطبق
عليهم... ولا يكون ما أتى ذلك إلا من الفهم الميت في معاني
الإصلاح فإن المعاني نفسها تموت معه ويبقى كل لفظ كأنه

(١) هما ملك اليمين وملك اليسار اللذان يكتبان الحسنات

قبر يُتَفَأَل له بالرحمة وتجري عليه الدموع وتنشقُّ المرارات
وهو لا يجيب الناس على كل ذلك الا بطلب ميتٍ جديد .
لا مَفْرَّ للخَلْق من العبودية وأنى لهم المَفْرُّ والسماء فوقهم
والشرائعُ تحمُّ السماء والقوانينُ تحمُّ الشرائع والرزائلُ
تحمُّ القوانين والوحشيةُ تحمُّ الرذائل؛ فويلٌ للمستضعفين
الذين يفرون من كل فرجة بين المخالب والأنياب وفي
أرجلهم القيود الثقيلة . وويلٌ للانسان الذي لا يكتفي بالله
في سمائه حتى يستعبد لصفاته في أهل الأرض . فالجَبْرُوتُ
في الملوك والكبرياء في الحكام والتقديسُ في القوانين
عادلةٌ وظالمةٌ والعزَّةُ في القوة . وماذا بقي لله ويحك؟
أيها القمر الذي يُشرق من بعيد كأنه وجه الحرية مهما
بعد فأماله قريبة ساطعة على كل نفس حقيرة . أما إنى لأرى
العبوديةَ الا لله وحده فانما هي فكر الروح في مبدئها
وأصلها به وان كان في الارض عبودية شريفة فهي للحب

وحده وانما هي فكره القلب في مرّجعه واتصاله به . وكما
يَسْتَعْبِدُ الْأَعْمَى لِعُكَاظَتِهِ لانه يرى فيها عنصراً من النظر ،
والشَيْخُ الْهَرَمُ لِعِصَاهُ لانه يرى فيها عنصراً من الشباب ،
والطِفْلُ الصَّغِيرُ لِعُبَّتِهِ لانه يرى فيها عنصراً من العقل ،
كذلك يستعبد عاشق الجمال للجمال لانه يرى فيه لروحه
وقلبه مَنْظَرًا وشبابًا وعقلاً فَيُبْصِرُ وَيَقْوَى وَيَعْقِلُ إِذَا عَمِيَ
غيره ووضَعْفٌ وَخَرِيفٌ ، ويعلم حينئذ بنظرة الفكر القوية
العاقلة أن العبودية للحب الصحيح هي مبدء العبودية
الصحيحة لله .

الفصل الثالث

ولعمري أيها القمرُ إني لأشكو إليك بتي وحزني
وأناجيك بأحلام النفس الانسانية وانك لتجيبني الجوابَ
الصامتَ البليغَ فتطرحُ أشعتك في قلبي آخذُ من بعضها
قولاً وأرجعُ اليك بعضها قولاً كالعاشق يرى في الحاظ
حبيبته بالنظرة الواحدة مافي نفسه ومافي نفسها جميعاً .

ولقد أرى لك في جانب من قلبي شعاعاً غريباً قد
استبهم عليّ فلست أعلمه وكأنه يذعث من أبعاد سميت في
السماء الى أعماق غور في القلب وانما انحدر في اشعتك ليمزج
بشيء من الغزل يستأذنُ به على هذا القلب الذي فيه من
الحب أكثر مما فيك من الجمال .

وما أدري ما أمرُ ذلك الشعاع ؟ غير أني أحس أنه
ينير في حلك الظلمة الخالدة التي فصلت بيني وبين أيام

وُلدت فيها الدنيا معي^(١) فأراه يقابل نفسي بمعانٍ رقيقة
كأنها أرواح تلك الأيام الماضية. وكأنه أتسق أسطرًا نورانيةً
أقرأ بها فصلًا من تاريخ الطفولة الذي تضحك كلماته لأنها
من لغة الضحك.

تلك اللغة الخاصة بالأطفال والتي يضحك منها الرجال
أحيانًا إذا استمعوا لها لأن في أنفسهم بقيةً من أثرها ،
تلك اللغة الموسيقية التي نفيضُ الحانًا حتى في الحزن ،
والتي توقعُ أنغامها على كل شيء تصادفه كأن كل شيء ينقلب
في يد الطفل أو تارةً مرنةً ولو كان العصا التي يُضربُ بها ...
بل تلك اللغة التي يُفوقُ بعضُ القلوب السعيدة إلى
الاحتفاظ بشيء منها على الكبر فتكون فيه ينبوعًا للفلسفة
الحقيقية يشرب منه الحُبُّ الظمان وتسترُوح إليه الحياةُ
المجهودة التي ما تكاد تنفس وتبترد عنده الاحزانُ المتهبة

(١) أيام الطفولة إذ كل مولود يستقبل الدنيا جديدة غضة فلو
وصفها بلغته لقال أنها ولدت معه فكلاهما عند صاحبه جديد

وتصغر لديه كل المصائب فتخرج عن طبيعتها الى طبيعته حتى
لا يستحيل بها دموعاً حارة وهو في الانسان بقية الرِّيِّ
من ماء الجنة قبل أن يخرج منها ويوم كان لا يُظْمَأُ فيها ولا
يَضْحَى .

وَأَشَدَّ مَا جَاهَدَ الْعُلَمَاءُ وَالْفَلَّاسِفَةُ فِي تَعْرِيفِ السَّعَادَةِ
وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوهَا بِتَنْكِيرِهَا إِذْ أَلْبَسُوهَا الْفَاضِلَ مِنْ لُغَةِ
الْبُؤْسِ كَانَتْ لَهَا كِشْيَابُ الْحِدَادِ الَّتِي هِيَ أَكْفَانُ الْحَيِّ الْمُتَّصِلِ
يَا مَوْتَ أَوِ الْمَيِّتِ الَّذِي لَمْ يَمُتْ . فَإِذَا أَرَدْتَ السَّعَادَةَ مِنْ تَعْرِيفَاتِهِمْ
وَإِبْتِغَايَتِهَا مِنْ أَوْصَافِهِمْ فَانْكَ تَكُونُ سَعِيداً جِداً بَلْ أَسْعَدَ
النَّاسَ كَافَةً لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَتَوَهَّمُكَ سَعِيداً مَتَى لَبَسْتَ
تَعْرِيفَهُ وَكَانَتْ عَلَى حَدِّهِ فَتَسْعُدُ بَعِثِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ سَعَادَةً
مُتَبَايِنَةً وَلَا ضَمِيرَ أَنْ تَبْقَى بِإِزَاءِ كُلِّ هَذَا النِّعَمِ بَائِساً فِي
يَقِينِكَ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا حَسُّهُ أَنْتَ . وَمَا يَقِينُكَ هَذَا
أَيُّهَا الْأَحْمَقُ بِجَانِبِ ثَلَاثِينَ ظَنّاً مِنْ ظُنُونِ الْفَلَّاسِفَةِ ؟

انهم لا يعتدُّونك شقياً ألبتَّةَ حتى تشقى بثلاثين نوعاً
من البؤس كما سعدتَ عندهم بثلاثين نوعاً من السعادة . . . !
كلمتان هما تعريف السعادة التي ضلَّ فيها ضلالُ الفلاسفة
والعلماء . وهما من لغة السعادة نفسها لان لغتها سلسةٌ قليلة
المقاطع كلغة الاطفال التي ينطوي الحرف الواحد منها على
شعور النفس كلها ، أتدرى ماها . أتدرى ما السعادة ؟
طُفُوْلَةُ الْقَلْبِ .

ذاك أيها القمر واني لأحس كذلك أنَّ قلبي يطرح على
ساحل أشعتك بقايا ما فيه من الآمال المحطَّمة التي طال
مَتَواها في لُجَجِ الهَمِّ ، كبقايا الغرقى في أعماق اليمِّ ، وليت
شعري ما عسى أنَّ يُجدي هذه البقايا ؛ انها أثر من رجاء ماضٍ
في زمن وقع وانقطع ، أو كلمة طيبةٌ قدمتها لاهلها ، أو شعاعٌ
ابتسامة أخذها الحبُّ في قلبي لانها روح شبابي والأرواح
خالدة ، أو معنى حزينٌ تشقه الدموع فلا تزال تُنزع اليه ،

أوقطعةً مُتَمَلِّمةً من الذكرى تمرُّ الأَحزانُ من صدُوعها ،
أو آمالٍ في المستقبل البعيد كأنها أحلام يَعِدُ بها النَّائمُ نفسه
قبل أن ينام . . ! ويكسوها الهُثمُّ البليغُ ثوب الاستعارة
فيتخيّلها ابتساماتٍ من السعادة كما يرى المُدمنُ في عناقيد
الكَرَمِ سحابةً من الحمر ، أو بقيةً من حياة معذبة . يقول
فلاسفة البوسُ إن القَدَرُ أبقي عليها لأنها من حصّة القضاء ،
ويقول حكماء الإيمان إنها بقية معلومة لغاية مجهولة متى
اتهيننا في طريق العذاب إليها^(١) رأينا نَمَّتْ عناية الله .

فدعني أيها القمر أحمّل في نورك بقايا عمري . إني كلما
قطعتُ مَرَحَلَةً في سبيل الحياة وضعتُ عندها أهملًا وعدت
أدراجي لأجمع ما يكون قد تناثر مني فأقطع كلَّ مرحلة
ثلاثَ مرات ، أما إحداها فأكون فيها كالشيخ الفاني
يَدْفُ مُثَقَلًا بأيامه ، وأما الثانية فأمضي فيها خفيفًا لا أحمّل
الاننومَ في أجفاني ، وأما الأخرى فأعود منها بأثارةٍ

(١) الضمير راجع الى الغاية

من الأحلام تخفُّ على تقسى لولا ما يخالطها من ثقل الفكر
في قطع مرحلة النهار الجديد .

ولو كنت من السعداء لسخر لي القَدَر من يحمل عني
بل لكان ظلي نفسه جميلاً ... وإذا أردت أن ترى قوماً
يَرتبون من لم يلد لهم ولم يكن من ذوي قربانهم ولم يمتَّ إليهم
بسببٍ واصل فانظر الى البائسين فان كل واحد منهم يحمل
أثقاله وأثقالاً مع أثقاله . وليس اخفُّ من أعمال البؤس
وحده اذ هي لاتعدو الجوع الذي تكسر شرته بكسرة
من الخبز والتعب الذي يذوب في غمضة العين ساعة النوم .
وما عدا ذلك مما يحمله البائسون فانما هو من أثقال السعداء لانه
لا بد من ظهور للحمل ... فمن يحمل الامراض التي لا قوام
للعالم الا بها مدة صحة السعداء ، ومن يحمل الهموم مدة
نعيمهم واغترارهم ، ومن يحمل الدموع مدة ضحكهم
واغترارهم ؛ ومن ومن ومن ومن الاهداء البائس الذي تصيبه

دائماً واقفاً في طريق الاقدار لانه برقة قلبه وسداجة روحه
يكون دائماً أقرب الناس الى السماء

أما أولئك الذين يغيبون في ظلمات العالم يتهجون كما
يتهج السمك في ظلمات الماء فكثيراً ما تتعاون الاقدار
متساندةً وتظاهر جرّ واحدٍ منهم حتى تكون عليه كخيوط
الشبكة وهو مع ذلك يفتأ يجاهدها يُفْتَل منها، فترى
ثم شبكة هذا الحوت الذهبي وقد علقت بها الأيدي يقرض
فيها الاصدقاء من جهة والأطبائ من جهة وغيرهم من جهة
وبالجملة فان ماله يستحيل يومئذ الى مقاريض تأخذ شبكة
الاقدار من كل جهاتها.

فان كانت القاضية فكثيراً ما يموت هذا السعيد وهو
يجذب الاقدار أو وهي تجذبه كأنه يريد أن يكون موتاً لموت.
ويصنّف وجهه مرةً ويُشِيخُ به مرةً كأن الارض ذابت
أو تخلّخت فأصبحت لا تقوى أن تحمله فضلاً عن أن تمسكه

وكان الجهات الأربع انزوت عنه فلا يرى الا جهة السماء
ثم يُحْتَضِرُ والحياة أمرٌ ما وجدها وكل نفس في فمه كأنه
قبلة مرة تقطر على شفتيه من فم الرذيلة الشوهاء. ويُكشَفُ
عنه غطاؤه فيرى ماضيه بعين صافية تكاد نظراتها تكون
عقولا مفكرة فلا تنفذ احداها الى أمر من أموره أو فعلة
من فعلاته الا ابانت عن نفسها وكانت كأنها تشهد عليه ،
فمن حيثما التفت لا يرى الا وجوه الأدلة ومن حيثما أصغى
لا يسمع الا إقرارها ، ويدركه الموت فيقول إني تبتُّ
الآن . . . كلاً إنها كلمة هو قائلها وإنها لا تُغني عنه من الله
من شيء وإنه ليُقبل بها على الله وهي في فمه كالفضيحة أو
أشدَّ خزيًا . ثم يموت وقد جهَد بالموت وجهَد الموتُ به
فيصعدان وكلاهما متباطيء والموت ما يكاد يحمله ويحمل نفسه .
لا كما يموت الفقير خفيفاً هادئاً كأنه طائر بسط جناحيه
وطار . ولا كما يصعد خفيفاً هادئاً كأنه معنى جميل تذهب به
رسالة معطرة .

واكبرُ ظني أن بعض الأغنياء يموت في الأرض وينتهي
إلى السماء ميتاً ولا يحيا هناك إلا بعلاج ... يدفع ثمنه بيده
الذي لا يملك في الآخرة غيره كما يدفع السجين المُفلس
للحكومة أجرَ ما يأكله في سجنها من أعماله .

وما كتب الملائكة قط صحيفةً هي أشأم طائراً في
السماء من صحيفة غني حين يُحتَضَرُ وهذه الصحيفة التي
تطير بمعانيها هي التي تنطبع فيها ظنونُ النفسِ الراحلةِ
سطوراً كأنها « فتغراف » الموت . وأحسب أن السطر
الأول من (الظنون الغنية) يكون جيناً شديداً ويكون
السطر الثاني خلافاً لأنه موضع رعدة فلا تثبت فيه يدُ
الملك ويكون الثالث نذماً والرابع مُجَازفةً والخامس رجاءاً
مستحيلاً والسادس أملاً مضحكاً والسابع كلماتٍ ركيكة من
الإيمان الضئيل والثامن حروف خيالاتٍ من الماضي الأثيم
كانها مقبلة بمخازيها ، أما ما بقي مما يُوفى على التتمة فإلى الله

أمره وفي الثمانية ما ان قليله أهل لان يُستعظم فيستعاذ بالله منه .

وما كل الاغنياء يلقون ربهم بمثل هذه الصحيفة
السوداء ان أريد الا الغني الذي يعيش فقيراً لموت غنياً
فترى أمواله أرقاماً لا اعداد لها تملأ السفائح^(١) والدفاتر
والدواوين وليس فيها رقم مؤمن تثبته الملائكة في صحيفة
الحسنات ليخرج من حساب الناس الى حساب الله .

وليت شعري ما ذا يريد هذا الغني الاصطلاحى .
أريد ان يشتري الارض أم أهلها . وهل يظن أنه يوم يشتري
الارض لا يشتري فيها قبره . ويوم يسترق الناس لا يشتري
بماله من يلغنه ؛ واذا دُفن تاريخ امرىء فانما تفتح له لعنة
بغيضة من لعنات الناس ويهال عليه الفاظ بغيضة من
الاحتقار فيموتى من ذلك في قبر ابدى

(١) هي الحوالات وقد عرفت في التمدن الاسلامى قبل أن
يعرفها الاوربيون وأخذها المسلمون عن الصين

المال الكثير حاجات كثيرة ، وحاجات هذا الانسان
الضعيف معدودة محدودة . ومهما حاول وزاول فانه لن
يعدو حده الطبيعي اذ قد عرفت الطبيعة غروره وطياحه
فجعلت له من المعدة قيذاً في باطنه ووضعت عليه من القلب
قِفلاً صغيراً بيداً أنه متين لا يقتحمه الا الموت . فليعلم
الأغنياء ماشاؤا فافهم لا يزالون من الطبيعة حيث هم بجانب
الفقراء والمساكين ههنا وههنا . والحقيقة محدودة دائماً بذاتها
ولكن الوهم قبَّحه الله . ! هل رأيت رجلاً ينظر بعيني رأسه
الى شرف مرتفع^(١) فيلمح فيه رأس رجل قد أطل ثم يحسب
ضلَّه أن هذا الرأس قد انخلع من مغرز العنق فارتفع حيث
يلوح وترك جنته متخلفة على الارض ؟

انك لا تجد هذا الرجل ولا بين المجانين ولكنك واجد
علماً بين الفقراء كله ذلك الرجل متى التبس الأمر قليلاً
وصار الارتفاع في طبقات الغنى دون طبقات الهواء . لان

(٢) الشرف المكان المرتفع من الارض

الفقير ينظر الى الغني بارادته لا بعينه فاذا كانت ارادته في
الغني لا حدها فهو لا يرى حدا للغني بل قد يراه من
الارتفاع والسمو في مكان لو قذفه منه بكلمه سحق
لقتله !

وكذلك يلتقي الغني عينيه حين ينظر الى الفقير ولا
يراه الا بباصرة من هواه ولذاته ، فقل الآن في قصر كأنه
من الدنيا صدفةً تفتح عن لوعوتها ، قد بالغ صاحبه في
زخرفه وأوسعَه من شهوات نفسه واقامه على الارض كأنه
ليس منها ثم يدخله ظاماً ظمًا الشباب وقد ملكته سورة
العافية ويجول في أهبائه وحجراته متشاوراً ما يمسك عطفه
كبيراً وخيلاً ، وينتهي الى أجل موضع منه على ما بلغ من
جماله فاذا هو لا يري تمت الا ثوباً اذ كن مغبراً كأنه منسوج
من أجنحة الذباب وقد بلى وتهتك واستوضحت في
جوانبه رقع بادية من أضلاع فقير بائس قامت به ريشاه

(١) كناية عن المرض بالسل

فما ينفك يَضِبُّ فمه دَمًا وصدِيدًا وهو مهزول يضطرب في
توب أضيْقَ من رثته وما يكاد يملؤه كأنه بقايا عظام الميت
في كفن قديم .

ولو عَقَلَ الفقيرُ المسكينَ لعرف انه مهما صغرت قطعة
الزجاج الملوّنة فإنها تصبغ الفضاء الواسع كله بلونها في رأي
العين . فالفقر هو الذي صبغ الغني بالوانه البهجة الرفافة لا
الغني ، ولو صح نظرُ الفقير لصحت قيمة الغني ولصار أمر
هذا القياس الى الحاجة التي لا بد منها لكليهما وهما سواء
فيها يجدها الغني بلا كدٍ فتي تناولها تعبته وملها ، ويكدح
لها الفقير فتي تناولها أراحته ورضيها أكثرها واكلها . وحين
ينام كلاهما ويخرجان عما في أيديهما على قلته وكثرته ويستسلمان
لله مُسكِ الارواح ومُرَجِعِها وينظران على تراب الابدية
الذي يتساقط به الليلُ ويرتقبان جميعاً من رحمة الله نهاراً
جديداً ، فحينئذٍ لا يراهما الناظر الاجتئين على صوغ واحد
لا يعلم أيهما التي يُسكها الله وأيها التي يرسلها فتستيقظ ؟

وكأنهما على تلك الحال إنما افترقا طويلاً بالفقر والغنى عن
طاعة الله فتنافرا وتدابرا ثم التقيا لوجه بفتة نخر كلاهما
صعقاً .

ليهنأ الفقير أنه الأساس القائم من الأحجار الصلبة
في بناء هذا المجتمع وأن الترميم لا يتناول إلا ما فوقه . ولا
تكون الصلابة بلا شيء فأنما يشتري الإنسان بفقره نعماً
كثيرة من الله ولكن اللؤم يسؤل له أن يساوم الناس عليها
فلا يجد من يشتري منه الا قوته وعمله لان الأيدي التي
خلقت لحم الذهب لم تخلق لحم العالم فيبتئس هذا الفقير
ويحسب انه وحده البضاعة المزجاة التي لا تقوم في سوق
الغني بثمان الا بضع رُغفانٍ من الخبز ، فتجف أصول
الدموع اللينة من عينيه ولا يبقى فيها الا اللحاظ الخسنة
وتصبحان في نظرهما الى الفضائل كأنهما عينا بندق الصائد
يسدّدهما الى الطيور الجميلة فلا تقذفان الا بالموت ، ويصبح

هذا الفقيرُ البائسُ وقد خلط فضائله بالرِّثة^(١) من متاع بيته
القدر ولا يزال بنفسه يروضها ويُسرِّي عنها الخوفَ المطمئن
الذي هو معنى الإيمان حتى يزول عنها كما يزول النهار فإذا
هي حالكة عمياء ويخرجُ التَّعَسُّ من الفقر كما خرج من
الغنى ذلك هو الخُسرانُ المُبين .

ولا عجبَ أن يخرج بائس من الفقر فإن وراء هذا
الفقر منلة أخرى لا ينحدر إليها إلا أتعسُ خلق الله وسبيلها
من الفقر نفسه . تلك هي الجريمة .

ولا تحسبنَّ الاغنياء المجرمين على غنى فإن كل شيء
يُسْرِقُ حتى الغنى وحتى اللصُّ يسرق نفسه من يد الشرطيِّ
بعد ان يكون قد جمعها عليه . والفقير الذي يطمح الى الغنى
كالغني الذي يطمح الى ما هو أغنى ، كلاهما فقر وكلاهما
طريق الى الجريمة

(١) الرِّثة ما كان قدرا خسيسا من متاع البيت

ويحك لم تبتدس أيها الفقير؛ الغني يريد أن يجعل
حظوظ الناس جميعاً حظاً واحداً ليختص نفسه بهذا الحظ.

وأنت تريد أن تختص بحظ الغني... فإذا تركت ما لله الذي
يوثي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء؛

ان الله قد ائتمنك على ائمن الفضائل وأعزها من الصبر
والقناعة وشرف الضمير. وأشرف بك على مصارع الاغنياء
فرايت كيف يخفق قلب أحدكم وهو يحسبه كرة الارض
زلزلت زلزالها. وكيف تطرف عينه وهو يتوهمها اللجة
التي تبتلع كل ما في رأسه من الأحلام، وكيف يموت وهو
يرى كل ما كان في يده كالظل على الماء لا يذوب ماءً ولا
يبقي ظلاً. ويرى انه كان يشتري المال الذي لاحد له بالعمر
المحدود فلما أفلس من هذا خسر اثنى عشر ما جميعاً

أفتحزن أيها الفقير على أنك تشتري بعمر كهناء القلب
وعافية الجسم ومحبة الناس وثواب الله وابتسامة الموت؟

لَا تَتَعَجَّلِ الْقَدَرَ وَلَا تَحْتَطِّ اللَّهُ خِطَّةَ الْمُسْتَقْبَلِ وَلَا تُغَدِّ الذَّنِيانَ
بِأَفْكَارِكَ حِينَ تَفَكَّرُ فِي الْبَعِيدِ فَاتَكُ فِي حَاجَةِ إِلَيْهَا وَاعْلَمْ
أَنَّ الْآلَةَ الَّتِي تُدِيرُ هَذَا الْعَالَمَ أَمَّا تُدَارُ مِنْ فَوْقٍ حَيْثُ لَا
تُصَلُّ إِلَيْهَا الْيَدُ الَّتِي تُحَاوِلُ أَنْ تُوقِفَهَا أَوْ تُبَطِّئَ مِنْ حَرَكَتِهَا
أَوْ تُزِيدَ فِيهَا، يَدُ الْمَجْنُونِ الَّذِي يُصِيدُ النُّجُومَ بِالشَّبَكَةِ حِينَ
تَذْبَعُ أَخْيَلَتُهَا فِي الْمَاءِ الصَّافِي... وَكُنْ إِنْسَانًا لَا أَكْثَرَ
فَإِنَّكَ تَحَاوِلُ أَنْ تُصِيرَ إِلَهًُا فَتُصِيرُ شَيْطَانًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَقْرِكَ
وَمُصَائِبِكَ وَأَحْزَانِكَ سِهَادًا لِهَذِهِ الزَّهْرَةِ النَّاصِرَةِ، زَهْرَةِ
الرُّوحِ الْحَيَّةِ فَهِيَ تَغْتَدِي بِكُلِّ ذَلِكَ وَتُحِيلُهُ إِلَى نَضْرَةٍ وَجَمَالٍ
وَعَطْرِ يَتَأَرَّجُ، وَأَضِي نَفْسَكَ فَإِنَّ حَوْلَكَ ضِيَاءًا يَغْمُرُكَ مِنْ
لَدُنْ تَفْتَحُ عَيْنَيْكَ إِلَى أَنْ تَنَامَ وَلَا تَكُنْ كَالسَّفْعَةِ^(١) فِي وَجْهِ
الشَّمْسِ وَلَا كَالْغُبَارِ فِي النَّسَمَاتِ وَلَا كَالرَّيْحِ الْخَبِيثَةِ فِي أَرْبَعِ
الْأَزْهَارِ وَإِنْ عَرَضَ لَكَ شَرٌّ أَوْ طَمَعٌ أَوْ شَيْطَانٌ فَاجْعَلْ

(١) السواد في وجه الشمس

السماء بينك وبينه فان في باطنك قطعةً منها، وترقق بصبرك
لا تجهدّه وبدمعك لا نُفنه فانهما الزاد والماء لمن يقطع هذه
المَفَازَةَ المهلكة من الدنيا سالماً ولا يريد أن يأكل من
جِيفِهَا أو يكون فيها جيفةً تُؤكل. ولا تُراء الناس في شيء
فانك تفقد نفسك بينهم ولا تحصلُ عليهم الا ظلالاً
وخيالات. ولعمري ما ذا ينفعك أن تمشي وراء الملك
لتقيس خطواته؟

إني لأرى قوماً يُعفون حاتم ليجمعوا سبيلها الطويةَ
حبالاً تتعلق بها النفوس الساقطة الى السماء. وآخرين
يقيسون ما بين حيطان المساجد بجباههم فلا تجد موضع
شبر الا وقد سجدوا عليه لتصير هذه الجهة الضيقة (ذراعاً
معمارياً) ... في قسمة الجنة التي عرضها السموات والارض (١)

(١) المراد بهذا المعنى وما قبله المتعبدون الذين يتسمون
بالصلاح ليغفروا الناس ويأكلوا باسم الله ...

اجترؤا على الله ليراهم الناس أقوياء فلا يجترىء عليهم أحد
ولم يبالوا بأن الله (سيأخذهم) بذنوبهم ما دام ذلك لا يكون
بعد أن يأخذوا من الناس . وهذه السين (سين التسوية) (١)
طويلة العمر جداً عند هذه الفئة وأمثالهم من الغافلين فإن
عمرها يبلغ ما بين الوهم والحقيقة وما بين نعيم الدنيا
وعقاب الآخرة .

فلا يهولنك أيها الفقير المسكين من أمر الاغنياء ولا
تنزل نفسك بالمهانة دونهم وانت أعظم أجراً فانك تُقرض
الله من نفسك وان أفضلهم من أقرض ربه من دراهمه ،
وكن في الحياة السافلة ابن الموت واذا كنت شجاعاً فلا
تبال آخرة الحرب ما تكون ، واعلم ان الفقر الذي يلتوي
عن طريقه كالسيف القاطع اذا لم يضرب به صفحاً فإنه
ينكسر لا محالة ويكون حامله قد أهان أشرف ما فيه إذ

نزل به دون (حدّه) ، فلا تُهِنِ الفقر الشريفَ حتى تَرِدَ به
على الله صالحاً نقيماً يُوضِحُ منك بكل ضاحكةٍ (١) وتمتزجُ
بطهارته ابتساماتُ الملائكة التي هي ثمن دموعك . ويكون
لك في الخلدِ فجراً أبدياً كما يكون للمحبين نورُ القمرِ فجراً
في أول الليل .

— ٣٥٣٢ * ٤٤٤٤ —

الفصل الرابع

أه عليك يا قري الجميل وآه على هذا السحر السماوي
لو يكون للجمال الارضي شيء منه يتفادى به من لسان واشٍ
وعذول . انك لتسكب الصمت والنوم والأحلام على
الأرض في ضيائك ممزوجة بالأفكار الجميلة لرؤس الفلاسفة
التي تشبه القلوب المرممة وقلوب العشاق التي أعرف كل
قلب منها كأنه عقل فيلسوف . فإتكاد تطلع وتعتلي الأفق
حتى تراك الأرض كأنك على قم السماء إشارة لها بالسكوت
فتسكت . وان بقي فيها من يشرق النهار في عينيه ^(١) كأنه
مختبي فيهما بحركته وضوضائه كجماعة محرزي المال من
لصوص النهار وطالبي المال من لصوص الليل مثلاً . . .
فان الطبيعة تلقي عليه سكوناً ينزل بالليل وظلمه شيئاً فشيئاً
فيتبدىء خفيفاً كالنوم الذي يلعب اليقظة في الاجفان .

(١) كناية عن السهر بعد مغيب النهار

يجرى وراءها وتشتدُّ وراءه وكلاهما يدخل من الباب الذي
خرج منه الآخر فلا نومٌ ولا يقظة ، ثم يثقل كأنه النسيان
يداعب الذاكرة الضعيفة ثم ينبسط ثم يستحکم فيجعل ذلك
الهرَّ الذي يشرق النهار من عينيه كأنه في عمله لفظ ركيكٌ
يضطرب في لسانٍ مُحْتَبَسٍ ^(١) فلا تلفظه الأرض ولا
تسمعه السماء .

أنت يا قمرى الجميل راية السلام الالهية البيضاء لا ترفع
للنهار حتى يُعمد حُسام الضياء في جفنه الأسود وتسكن
غمغمه الحرب التي يتقاتل أهلها على الحياة وتنطبق اجفانُ
الناس فكان كل جفنين إنمائيًّا لأن حياة امرئ زمت شفيتها
كيلا تنزع ملائكة السماء بهذه الاصوات الوحشية
المنكرة التي تنبعث من فم النهار فتقبل على التسبيح لله ،
وتقبل الطيور وهي ملائكة الطبيعة على المناغاة ، ويقبل
(١) أي فيه حبسة وهي عيب من عيوب النطق لا استطاع

النطق معها من غير عنت واضطراب

العشاقُ وهم ملائكة الناس على الفكر والنَّجْوَى ، ويقبل
الشعراء من وراء أولئك جميعاً فينظمون الشعر الالهي
الذي تترج فيه ألحان الملائكة بأنغام الطيور وآهات العشاق
فيمتلىء من أسرار الفكر والعاطفة والقلب ويخرج وانه
ليكاد يُخلق منه العقل ، وترى فيه الروحُ باباً من أبواب
السماء كأنه الطهارة وكنياً من أكنان الطبيعة كأنه القناعة
ومنفذاً من منافذ القلوب كأنه الحب ، فاذا هي بالسماء والأرض
بين كلمات واذا كلمات تملأ ما بين السماء والأرض ، ثم ترى
الفكر الانساني قد استحال الى أمواج من الخيال يجري
فيها القلب كأنه زورق من الزوارق فتشب اليه وما هو الا
أن يحتويها حتى تتناول مجدافه البديع المصنوع من جوهر
العواطف والذي لا يبرح ملتصقاً به كأنه يد الحسناء على
على قلب عاشقها . ومن ثمَّ يجري بها في بحر الجمال الذي
تشبه السماء كلها موجةً من أمواجه الابدية والذي لا

ساحل له الانور الفجر والذى يُخيل اليّ أنك أنت أيها القمر
جزيرةٌ تلوح فيه على بُعد .

لا كهذا الشعر البارد الثقيل الذى تفرغه . . . افواه .
بعض شعرائنا . . . المشهورين ^(١) . . . وكأن الفاظه قَصَصَتْهُ
الأسنان من شدة البرد وكان معانيه العذبة ماء يُسْتَسَاغُ
على الريق . . . واذا بلغت به الحماسة المنطقية . . . رأيته
فاتراً كأنما يتشاء بون به . واذا اراد أحدهم أن يضع روحه في
بيت من الايات ولو ان طرح بعده جثة باردة . . . خرج
هذا البيت رغم انك حاراً كما شاء وانصرف عن انك

(١) لا يذهبن عن أصحابنا أننا نعني بعضهم فى الشرق كاه
فن رأى جملته من هذا التفصيل واسمع الناس وأسمعوه فقد
يرئنا أن نكون بهتناه وانما اتهم للناس نفسه . ولعلنا نقرّد كتاباً باخدا
بالقول فى شعراء هذا الزمن وكتابه ومراتبهم على أقدارهم من
الصناعة وتاريخها ثم الموازنة بينهم على أقدارهم كذلك

وأنت تتنسم كأن ما فيه من الروح إنما خرج إليه من
تحت إبطه

شعراء!! وشعراء الشرق!! نَعَم ونَعِيمَ عَيْنٍ^(١) . وعند
الزواج جماعة يُحسنون الرقص على نقر الطبول هم شعراؤهم
بل شعراء العقول الذاهلة والأحلام الطائشة بل شعراء
الوحشية التي تكتب بأسنانها وأظافرها .

هذه الوجوه التي صَلِّبَتْ من التمرغ على الأعتاب وهذه
الأيدي التي ينكرها الله حين تُمَدُّ . . . وهذه الرؤس الفارغة
إلا من جنون العظمة . وهذه القلوب التي تَسَعُ كل مائة ثلثين
إلا الإِخْلَاصَ وَحِبَّ الحَقِيقَةِ . وهذه الأفواه التي تَبْجُ
الماء في كل جهة . وهذه الألسنةُ المعقودة على بعض الفاظ
كما يعقد القُرُويُّ الجِلْفُ تلك العُقَدَ الكثيرة في منديله على
درهمين . . . هذه كلها مجموعةٌ ومتفرقةٌ مما يتنزه الشعر

(١) يقال عند المبالغة في الجمالة نعم ونعيم عين او نعم ونعمة

الالهى أن يُسِفَّ اليها لان أنفاسَ السماء لا تسقط هذا
السقوط كله ولا يعذبها الله بان تهبَّ على الأرض لكنس
غبارها ...

لو عدا الشاعرُ الصحيح طَوْرَ التكوينِ الشعري
بصفاته لما كان منه الانبياء . وان تلك الاعضاء الشعريَّة التي
يفيض الفكر عليها كلها الهى الأعضاء التي يتجسم بها مجدُ
الامة ليكون ملكاً من ملوك التاريخ لالصالاً من لصوصه
تشهد معارفُ وجهه أنه منطلق من حبسه فيترأى عليه
غبار الاعتاب كأنه بقية مما كان فيه من الظامة وتراه لا يلوذ
من خزيه الازوايا التاريخ المجهولة ويودُّ بجِدْعِ الأنفلو
يُسخِّحُ حجراً من أحجارها التي كل عذرها في الخراب .

الشاعرُ الصحيحُ رجلُ الكمال السماوي لان الشعر اذا
لم يكن مع الشرائع كان عليها وفي ذلك فساد كبير ..
والشعراء انفسهم كالشرائع تكون لمن يشاء أن تكون له ،

وهم يحكمون النفوس بالحب والشرائع تحكمها بالرهبة ولولا هم
مأعطى الناس قوة فهم التعزية فلم يكن لهم أن يطمئنا
لدين من الأديان . وانك لترى الشاعر يستل جمال هذه
الطبيعة كلها من نفسه الكبيرة ليلقي على الناس محبة منها
كأن الطبيعة لا تجد طريقاً الى النفوس الضعيفة الا بعد أن
تُصْفَى وتُصَفَّقَ في نفوس الشعراء فتخرج منها كما تنبعث
المعاني الغزكية الكثيرة من عيني الحسناء الفاتنة ولكل معنى
طابعه الخالص به في النفس مع أنها جميعاً من مصدر
واحد ...

وما هذه العظام الكبرى التي يمثل بها الزمن تاريخ
العقل الإنساني الافكار وُلدت بديئاً في قرائح الشعراء ثم
كفلتها الطبيعة تحملها في مهد من قلب امرأة جميلة أو تتمهد
لها في عقل رجل حكيم أو فيما تختاره هي كائنات ما كان حتى
في الاستبداد والوحشية والجماعة والجنون وغيرها لأن

للطبيعة حكمتها التي لا يعرف كُنْهَهَا الانسان الا باستقراء
تاريخ الاشياء في أجيال وقرون قبل ذلك كثيرة وهو
نفسه بعض هذه الاشياء .

فالشاعر الزائف كالدينار الزائف كلاهما لا يجوز على
أحد الا مع الغفلة وكلاهما رذيلة في نفسه بالغش ومصيبة
على غيره بالخسارة

وان الذباب ليقع على الزهر كما يقع النحل ليجني العسل ،
وانه ليطن في الروض كما تغرد الطيور لترقيص قلوبها
الصغيرة ، ثم يطير عن الزهرة ذباباً كما وقع ويسكت ذباباً
كما طن وكيفما نظرت اليه لاتراه ذباباً ولكنه من الطير .
ولكنهم من الشعراء ...

حنانيك يا قمرى الجميل وزحماك . إمسح عن قلبي
هذه الغيمة السوداء التي انتشرت من أجنحة الذباب فقد
رأنت عليه وغشى ظلها على بصرى حتى ما أراك على وسامتك

وضيائك الا كوجه من تلك الوجوه التي تصطبغ بكل
لون الا ما كان من الخلق الحسن فانها تستمد من قلوب
يكفي أحدها أن يكون (طينةً) خلق نوع من الانسان
بلا أخلاق ...

حنانيكَ ورحمكَ ان على قلبي غيمةٌ كأنها من
الكذب الذي لاصدق معه من القلب . والتملق الذي
لاحياء فيه من النفس . واخيانة التي انعقد عليها الضميرُ
فلا تحفظ غيبَ انسان والصلف الذي يشبه صلف المعتوه
إذ يُباح له أن يتجنّب ولا يُباح لك أن تعتب والظل الاخلاقي
البارد الذي يحيط بأحدهم فيجعل مثواه كأنه مغارة تبعث
عليك أنفاسها ثقيلةً باردة في ظلمة وكبرياء كأنما هي خارجة
من أعماق تاريخ الفراعنة ...

وإني كما أغمض عينيَّ حين يواجهني الإعصارُ الاحمق
الذي ينفذ بساطه الارض في وجوه السابلة أراني

منذ الساعة قد أغمضت عيناً في قلبي تطلع على الحقيقة .
إذ لم أكد أرفع كأس الحكمة المعسولة لأحتسبها ولم
تكذب تقارب شفقي حتى تهافت عليها ذباب تلك الاخلاق
فأحرزتها جانباً لتسكن نفسي بعد أن خبثت من منظر
هذه الظلال السوداء التي هي أجسام نفسها وظلالها
معاً . . .

فاحمل الى أيها القمر قطرة من ندى الروح الجميلة
الذي ينسكب في أنفاس تلك الحبيبة وأرسلها الى كأسي
في قناة من أشعتك السحرية حتى تمتزج بالحكمة على
شفقي فكأنني أتناول هذه الحكمة من ثغرها البسام .

الفصل الخامس

يا لها لحظة جمدت على قلبي أيها القمر حتى كدت
أحسبُ الزمن لا يجري بل كدت أحسبني استحلّتُ الى
قطعة ثابتة من الأبدية التي لا يدخلها شيء من الدنيا الا
ميتاً حتى الزمن نفسه .

ولكن « ثغرها البسام » لم يدعني أموت في شعاعه
الذي يتدفق بحياة حلوة لذيدة وموتٍ أحلى منها والذي
غير أنه لا يميت لأن الحسن يبخل على الحب بمثل هذا الموت
الهنئي . ولو كانت روح كل محب لا تمتزج الا بقبلة ولا
تفيض الا مع الابتسام ولا تجد قفلاً باب السماء الا هذا
القم الوردية الرقيق لتغير نظام القلب الانساني ولصارت
كل نبضة من نبضاته كأنها خطوة واسعة في قطع
المسافة بين الدنيا والآخرة إذ يكون للحياة وقتئذ

ما عهدناه من بغض الموت ويكون للموت ما نعرفه من
حب الحياة .

فلا يزال الحسنُ مُخيلاً لأن الآخرة لا تزال بعيدة
مادامت في علم الله وحده ، ولا يبرحُ الحبُّ عذاباً لان الجمال
لم يبرح في نظام الله مادة حب الحياة ولو لم تكن في الارض
هذه الوجوه الجميلة لما صُحَّت الأرض للحياة العاقلة ولا نشأ
فيها عقل واحد يستطيع ان يجد دليلاً على وجود الله فان تلك
الوجوه الفتانة — بما تحوى من المعاني التي تشبه في إقناعها
لنفس من النظرة الاولى ما يحويه أقوى البراهين المنطقية
— انما هي في الحقيقة الصفحاتُ الأولى من كتاب المنطق
الالهى . وأنت فاعتبرِ ذلك بهؤلاء الملائحة الذين
ينكرون الخالق فان أخبثهم إحداء لا يكون الا أشد الناس
يغضباً لطهارة الجمال كأنه أشدُّهم بعدا من طهارة القلب .

لم يدعنى ثغرها البسَامُ أصعد الى السماء في شعاعه بل

ألقى على ابتسامة في نظرة ضاحكة تشابه ابتسامة أخرى
كأن احداها أختُ الثانية فاحاطت بقلبي حتى رأيتَه
يذوب فيها كما يذوب السحاب الغدقُ الأَسْحَمُ^(١) فيصفو
عن غمامة رقيقة بيضاء .

وكان تلك المليحة أغارتك أيها القمر فانت الآن
تبتسم . لله منك يا صورتى الجمال فى الارض والسماء وهل
جعل الله لرجل من قلوبين فى جوفه . فيسَعَكُ وَيَسَعَهَا؟
ولله ما أطف هذا الشعاع الذى يسيل الآن على الجوّ
رقيقاً خصباً^(٢) كأنما تغتسل به نسمة من النسمات العطرة
بعد أن استيقظت فى هذا الليل ونهضت من فراشها على
أغصان الورد .

ولله ما أنداه على كبدي الحرى هذه التى تغيب الشمس
ويبقى فيها مع ذلك لفحة من حرّها ومن حرّ انفاس
(١) الاسود الممتلىء يركم بعضه بعضا (٢) الخصر بكسر الصاد

الذين تشرق عليهم فان هذه الكبد أمست في جنبي^١ كأنها
«معمل كيمائى» لتحليل تلك الأ نفاس وتقدير ما فيها من
الخير والشر وما الحكمة كلها الا ما أسفر عنه هذا التحليل
فن لم يدرس طبائع القلوب المتوهجة في أنفاس أهلها
لا يعلم قلبه شيئاً وان كان رأسه مكتبة من العلوم . ومتى كان
القلب جاهلاً بقي الانسان بعلمه كأنه قطعة في أداة هذه
الطبيعة كل شأنها أن تحرك بعضها وتتحرك ببعضها ،
وفقد السلطان الحقيقى على الطبيعة نفسها لأن هذا السلطان
لا يكون بالقوة التى هى غاية العلم اذ الطبيعة على كل حالة
أقوى ، ولا يكون بالتسخير الذى هو غاية للعمل فالطبيعة
حرة لا تدل أئمة لا تخضع ، وان ظهرت عليها الذلة
والمسكنة فذلك في نظر الانسان واعتداده ليس غير .
ان الهواء لا يعجب من منطاد^(١) يعلو فيه — وان

(١) تعريب لفظة البالون

كان غاية ما انتهى اليه اختراع الانسان — الا اذا عجب من كل ذبابة تطير . والبحر تتمخر فيه الجوارى المنشآت كالأعلام وتثبت عليه كالمُدُن وتمثل فيه الأرض المائية التي خلقت في أذهان الانجليز (١) ، . . . وإن صغرى أسماكها لتكون أصلب منها على مُجالدته ، وأقوى على مجاهدته . فما للإنسان يَأُوك بين ما صنِغِه هذه الالفاظ التي يحاول أن يُشبع منها معدة الخلود في وهمه ولا تراها الطبيعة الامن غذاء النسيان ؟

السلطان الحقيقي على الطبيعة سلطان الروح لانها من الله وهذه الطبيعة أداة في يد الله . فليجعل الإنسان شفتيه مخزناً لغويًا مملوءًا بالفاظ العلوم ، فان الطبيعة لا تبالي بمدلول الحروف مهما حملها على ذلك باصطلاحه . ولكن ليجعل في قلبه علم الخير وإحالة الشر الى الخير فان الطبيعة حينئذ

(١) هؤلاء الانجليز كانوا هم اسماك الارض وعندهم ان الانجليزي لا يقبل الجدال في شيئين الاسطول وشاكسبير :

لا يَسَعُهَا الا أن تخضع باحساسها خضوع الاِ جلال لا ستاذ
تلامذتها وترفع الى الله على يده تعازي المساكين كأنه الأَمِينُ
على آمال القلوب وتجعل الطبيعة هذه اليد نفسها كأنها شكر
منها لله تعالى إذا أنجبت رجلاً من رجالها في الارض .
كم من عالم لا ترى الطبيعة اندفاع الكلام العلمي من
شفتيه الا كما يرى أحدنا اندفاع اسراب الخفافيش العمياء
من جانبي المغارة وقد أبرزها على إشراق الضحى صبي من
الصبيان ، وسيكون أكثر هذه العلوم في معاملة الله كالثروة
التي يمتلكها الفقير في حلم من أحلامه (الذهبية) فيستعبد بها
من شاء من مخلوقات النوم ويمتلك ما شاء الله من زخارف
الليل المصنوعة من الحجرة الدماغ حتى اذا جلا النور
عينيه لم يستطع أن ينال بكل ذلك الغنى العريض كسرة
من الخبز يتبائع بها وقد بات طويلاً . فان الله لا يعامل الا
بالنية ، ولا يشبث في سجل الحسنات الا الارقام القلبية ، فدع

هذه المدينة وهذه العلوم تنزع ما في قلوب أهل الخير من
الخير فانك لن ترى على الارض يومئذ من الناس الا
حيواناتٍ عالمةً تأكل حيواناتٍ جاهلة... وهل تحسب
قوة الحيوان المفترس بإزاء ضعف ما يفترسه الا علماً أو
معنى كالعلم بإزاء جهل أو معنى كالجهل؟

ويومئذ لا تبصر الطبيعة بعينها الالهية شيئاً من الفرق
بين أنفس الوحوش وأنيابها ومخالبها وبين كتب العلماء
وأيديهم وأقلامهم. تلك جميعها انما تكون في الجهتين أدواتٍ
صماء حرفة حيوانية هي حرفة العيش.

وانت ترى الصورة الضغرى لهذا العالم الحيواني في
جماعة الملحدین فان كل تلك الفاسقة وذلك العلم اللذين يزعمونهما
ويتدبّلون بهما في الناس انما يدلان على أشياء كثيرة بتداخل
بعضها في بعض كالمترادفات اللغوية ثم تراها كلها قد صارت
الى معنى واحد يدل على الحقيقة التي هي أم هذا الباب كما

يقول النحاة . وهذا المعنى الذي لا ريب فيه هو ان نزاع الخير
من قلوبهم الخبيثة المتسكمة بالله .

ولست اصدق أن ملجداً يعمل خيراً للناس ابتغاءً الخير

نفسه . فان حدثوك بخبر من ذلك فاعلم أنما يريد به الرجل

برهاناً على صحة إلحاده الانساني . . . يخدع به من يقدم له

الخير أو من يراه وهو يقدمه فإنه لسخافته يكفر بالله ويريد

أن يعمل بمض عمل الله وما من شيء خبيث نعتده شراً الا وفيه

جهة تُخرج منه الخير وهذه الجهة في الإلحاد هي الغرور

والوهم فلواصبّت إلحاداً لاغرور فيه ولاوهم فاعلم انك أصبت

عقلاً في مجنون أو جنوناً في عاقل . وليس ذلك بدعاً فان في

كل دائرة نقطة تعدها الغاية التي يرتقى اليها طرفا المحيط

إذا نظرت اليهما صاعدين نحوها ، فان نظرت اليهما

منحدرين عنها كانت هذه النقطة عينها مبدء السقوط

ولم يكن ثمة فرق بين القوسين المنحدرين الا في الجهة يمتة

ويسترة كما لا فرق بين عقل المجنون وجنون العاقل الا في الجهة

لأن كليهما وبال على صاحبه وأحق ما يكون المجنون
إذا رأته يتعاقل .

يريد الملاحد أن لا يقر بشيء يُسمى فلسفة النفس أو
يسمى ديناً لأن الحرفين مترادفان ثم أنت تراه يخرج لك
من رأيه ما يريد أن يجعله حقيقةً لهذه الفلسفة التي أنكرها . .
فهو يكفر بإيمانك ليجعلك تؤمن بكفره وكأنه يقول لك
إنما نحن على الأرض فانظر في الأرض واكسر هذا اللؤلؤ
الذي تتحرك به عينك الى جهة السماء حتى يبقى علمُ راسك
فيما تحت قدميك . وان سألت عليك السماء بعنصر الحياة (١)
فلا تقل هذا من واهب الحياة ولا من رب السماء ومهلاً
قليلاً فإن الأرض ستجمعه في أنهارها وتنبطه من عيونها
فتمتدح لك الحياة من الأرض كما تنشق المادة من المادة .
ثم يدوب هذا الكلام الرقيق في حلقه فيبلعه مع ريقه
ويسكت . . . وكان بصره الزائف يقول لك : أما الهواء

(١) كناية عن الماء لان منه كل شيء حي

فان لم تستطع أن تتنفسه من الارض ولم تستطع الارض
أن ترفعه لك من تحت قدميك فلا نُدْحَة لك في هذا من
أن تترك مَنْخَرِيكَ يُعَدَّان في المؤمنين برب السماء. ويكونان
فيك كما تكون الاعضاء الأثرية ولو حكماً واعتباراً. وإن
كان لك ضمير شريف طاهر كأنه مرآة إلهية ووضعت في
الأصل بين جنبي آدم لتمثل لروحه السماء وجمالها متى أُخرج
من الجنة - فاعتدّه رأس ما ورثت من داء عن آباءك
الأولين لأنه لا برهان عندهم على فساد الايمان أقوى من
هذا الضعف الرحيم في نزعة القلب^(١). ولعمري إنه لبرهان
سديد في الغاية ولا أبداع منه في علم المنطق لان فيه قوة
الانعكاس من نفسه فلا يرسلونه حتى يُردّ عليهم كأنه جواب
أنفسهم على اعتراض السننهم، وأي برهان أقوى على فساد
الإلحاد من إرادته أن يكون في الموجد عقل إنسان
(١) ينسب للمجدون كل شيء في عقل المؤمن وقلبه الى
الجهل او تأمير الوراثة كأنهم هم لا يولدون ولكن يزرعون...

وقلبٌ وحش؛

ثم كأنه يقول لك إن العلم أثبت ونفى وإن الدين نفى
وأثبت فلا تمايل بينهما متردداً وخذودعاً والكن من العلم
وحده فإن شيئاً تفهمه خير من شيء لا تفهمه، وكل ما أبقى
العلم فلا ترصنه لئلا تُرمى بالجهل الاصطلاحي ... وإذا
كنت فقيراً لا تملك الملايين وكنت اشتراكياً فلا تصدق
ان أحداً يملكها لان الاشتراكية تأبى ذلك وكن دائماً
تنظر ولا تصدق^(١) ... وأذا رأيت الانسان لا يزال
عاجزاً الى اليوم عن تعليل أشياء كثيرة من البسائط التي
تمتحن بها الطبيعة أطفالها ممن نسميهم العلماء فاعلم أن
هذا الانسان لا يزال ناقصاً في رأى العلم وسيتم يوماً ما،
فحسبك أن تكفر الآن كفراً ناقصاً ... وإياك من الغرور
وأن تحسب ان نقص الكفر جاء من كون الايمان كاملاً
بطبيعته لانه شيء أزل في النفس بل هو جاء من نقص

(١) هذا كله تصوير لمكابرتهم وجودهم

العلم أو من نقص الانسان العالم فتم هذا يتم ذلك لا محالة
فيكون أكبر عالم في الأرض أكبر كافر في الأرض ...
ونحن لانعرف من امر المستقبل شيئاً ولكننا نعرف أن
العلم سيبلغ تمامه في المستقبل ...

لله منك أيتها الفئة الباغية. العلم^(١) الذي لا يخلق ذبابة
ولا أحقر من ذبابة ولكنه يجدها فيتفلسف ويقول لنا
كيف خلقت هو الذي يريدكم على أن تكذبوا بالخالق؟
والعلم الذي ينتهي في كل شيء الى كل حد من الجهل
يريد أن يجعل جهلكم عاماً؟

بل العلم الذي هو بجملته تفسير عملي لنظام الكون
يريد ان يجعل القلب الذي هو سر الانسان بلا نظام؟
كلا إن العلم لا يريد ذلك ولا العلماء أرادوه^(٢)

(١) هذا من اجتمع همزة الاستفهام بهمزة الوصل والاصل
أالعلم (٢) اثبت كثير من فلاسفة المتأخرين ان كثيرا مما كان
يحسبه العلم حقائق ثابتة ليس الا أوهاما

ولكن قوماً أرادوا أن يشاركوا الله في أنفسهم فعملوا على
أن يضعفوا قلوبهم لتقوى عقولهم وحسبوا أنهم أفلحوا
ومادروا أن القوة أنصرفت عن القلب والعقل معاً وصارت
قوة علمية كالقوة التي في كتب المنطق لا تقوم لضعف
مافي الباطل وهي أسطرٌ وحروف ولا يقوم لها أقوى مافي
الحق وهي أغراض وأهواء فإيزال الباطل لها وعليها. (١)

وقد زعموا أنهم أنشطوا الفكر من عقاله فكان
من ذلك ما انتهوا اليه وكانهم يقولون: إن الدين الفلسفي
هو في الحقيقة الرجل الحر. فبالهم إذن ينسون أن هذه
الكلمة عينها تُخرج لهم لوعقوا أن الحرية هي في الحقيقة
فأسفة الدين؟

إن المتوحشين يُقرؤون باله ولكنهم يعملون على أن
يكونوا آلهته كما أنه إلههم ويحاولون في كل شيء أن يتعبده
(١) وعلى هذا مبنى السفسطة الجدلية وهي اثبات ما ينفيه
الخصم أو نفي ما يثبته

بما يُخيل لهم انه من السحر . والملاحدون لا يتغنون ذلك
فحَسْبُ^(١) ولكنهم يريدون أن يحوه بَتَّةً . أفليس هذا
متمتهى التوحش في القياس ... ؟

ليت القوم لم يكفروا بالنطق فيما لا يعرفون فقد كانوا
يؤمنون بالصمت . وان السكوت عن الخوض في أمر
الغيب ليكاد يكون أفضل بحث فيه . على أننا نرى الكلام^(٢)
أصل البلاء فان من أهل الأديان من هم شرعاً عليها من الكافرين
بها . وسواء على الله أكان فاسد الفكر صاحب رأى
في الدين أم صاحب رأى في الإلهاد

ولو نظرت الى فرق الجدلين المختلفة على كثرتها
وتعدد مذاهبها لرأيت أن كل فرقة هي في الحقيقة عقل
رجل ذكي استهوى اصحاب فرقهه ، لادين رجل عاقل لأن
الدين لا يتجزأ إذ هو عبادة القلب — الذي لا يدل على

(١) أى فقط (٢) يريد علم الكلام

وحدانية الله شيء مثله للاله الواحد الذي ليس كمثلته شيء .
ولكن العقل لا يترك هذا القلب لنفسه بل يعده بما فيه من
الحس والشعور كأنه رأس ماله في التجارة العامية وكثيراً
ما يكون أمرها كالتاجر الذي يخسر ماله ثم يعمد الى ضبط
حسابه بعد خسارته فلا يردُّ عليه الحساب شيئاً لاتفصيل
ما خسره بما يشبه في التحسر واللهفة أن يكون خسارة
ثانية .

الفرق بعيدٌ بين أن تكون القوة آتيةً للقلب من
العقل وبين أن تكون آتيةً للعقل من القلب فان تساط
أحدهما على الآخر يضعف أكثر خواصه^(١) فالعقل موضع
الخطأ والصواب لانه ألتها جميعاً، وأظهر خواصه الشك
فانه الخاصية التي يمكن في العقل أن توفَّق بين الخطأ
والصواب قبل أن يتزايلا^(٢) اثناهما فيتباينا. وهذه الصناعة
العقلية كثيراً ما يقتضى لها إيجاد العضلات التي لا تحل كي

(١) خواص هذا الآخر (٢) ينفصل أحدهما عن الآخر

تلقني للعقل شغلاً طويلاً ثم يحكم عليها آخر الأمر حكماً
منطقياً أنها لا محل، . . . وكثيراً ما يطلب البرهان على شيء
ما فإذا أصابته (١) جعلته شيئاً آخر قائماً بذاته وطلبت عليه
برهاناً . . . وهلمَّ جرَّأحتي يقطع بها فتصل الى مالا برهان
عليه .

واخطيئة إنما تكون في العقل بديناً (٢) فتخلق فكراً
ثم تنحدر مع القوة إلى القلب كأنها قوة له ثم تقع وتمثل
سخط القلب ورضي العقل غالباً أو رضاها معاً في القليل
النادر . وهذا السخط القلبي هو الذي يترك في الرأس أثراً
من ذكرها وهو الذي يسميه بعض الناس ندماً ويسميه
بعضهم صوت الضمير:

ذلك امر العقل ، اما القلب فهو موضع الحقيقة السماوية
التي تظهر بين الناس في هيئاتهم فيسمونها المحبة ، وبين الملائكة
(١) أي البرهان (٢) بديا وبادىء بدء وبادىء ذى بدء
أي أولا

فيسمونها الانسانية ، وعند الله الا فيسميها الايمان . وما
كان في القلب غير ذلك فهو من تسلط العقل واستبداده .
وانت لا ترى أسعد الناس وأهنأهم بسعادته الا ذلك
الذي يجمع قلبه وعقله أن لا يصدر أحدهما عن الآخر الا
راضياً مرضياً . فترى في آثار عقله طهارة القلب وإيمانه . وفي
آثار قلبه إجادة العقل وإحسانه ، ولو كشف لك عن بواطن
الأنبياء لتجلت لعينيك هذه الحقيقة ماثلة

فمن ترى هذا الملحد الذي يحدس^(١) لك بعقله وهو
وكأنما يحرك يده في شبر من الماء ، ويحاول أن يوهمك
أنه هز السماء وانت ترى خيال السماء ألا فلا يخلق الناس
إن استطاع بلا قلوب فانه سيجدهم لا محالة بلا ايمان والا
فليركهم فان في العالم غير صناعة العقل أشياء كثيرة واليوم
الذي يكون فيه كل الناس عقلاء في الراى يكون فيه كل
الناس مجانين في الحقيقة

ليس الفرق النظري بين المؤمن والملحد الا في تسمية
جهل العقل بما وراء الطبيعة ، وكل ما تشعب من ذلك فاما
هو براهين علمية ... على صحة تسمية هذا الجهل
أيها الملحدون ! أنا لا أستطيع أن أعزى بالعقل لانه
هو الذي يجعل النازلة لا تقبل العزاء • بل المصيبة لا تكون
مصيبة الا حين تكون عقلية في حيز من الوهم ، فمى وقعت
مرت كأنها حادثة مألوفة تجىء بالنسيان أو يذهب
بها النسيان ^(١) .

(١) مما كتبناه في التعزية هذا الفصل الآتى نورده لان له
هنا موضعا :

المصيبة حرسك الله وان كانت اكبر من التعزیه ولكن ثواب
الله اكبر من المصيبة والايان بالله اكبر من الثواب . وما آمن
بالله من لا يشق به ولن يثق به من لا يطمئن الى حكمته ولا
اطمأن الى حكمته من لا يرضى بحكمه ولا يرضى بحكمه من سخط
على ما ابتلاه •

ولقد عرفتك من أوثق الناس ايمانا فلتكن من أحسنهم صبورا
واجملهم عزاء ؟ ونحن الضعفاء المساكين انما نعامل الله بما يصيبنا

وأنا لا أستطيع أن أعرف نفسي مركبةً على هذا
الوجه المعجز الدقيق ثم اتوهم انها خارجة من عدم مُطلق
الى عدم مطلق ، فان الذي يتصور الوجودَ الجارى على
سُنَّ ثابتة كانه بين عَدَمين هو ذلك المجنون الذي يتوهم
الشجرة مخلوقة من ظلها ويتصور ظلها قطعة باقية في النهار
من ظلمة الليل الغابر

وأنا لا أستطيع ان اقول عن نفسي (أنا) لأحقيق
وجودها وهي بين ما ضغى العدم يرددها حيناً ثم لاشيء
منها الا توهم انها غذاء ما لا يتغذى .

وانا لا أستطيع أن ارانى فى وهمكم كأنى حلم عقلي
تهجس به الفلسفة مع ان قلبي فيما أحس يقظة حياة
مجسمة هي دليل نفسها على نفسها .

به فان جزعنا فمد بلغنا حق انفسنا فلا حق لها من بعد وكأنما
أصبنا مرتين ، وان صبرنا فما أحرى أن يكون الصبر على المصيبة
هو ربح المصيبة والسلام

وأنا لا أستطيع ان اصدق ان حياتي كلها بما فيها من
خير وشر لي وعلى تكون في مرَدِّ الأمر كالذي يُرسل
في الهواء صرخة مزعجة ليعرف بعدها أنه سَكَتَ وكان
قبل ذلك ساكنا .

وانا ايها الملحدون لا أستطيع أن أسخر من نفسي
فأرى أن لا نفس لي ولا اريد ان اكون في حملها كالأعمى
الذي يحمل الكتاب حتى يجد بصيراً يقر له . ولا اجهد
الى الحد الذي يقر فيه علمكم ان الحياة معناها الموت -
لانهايتها المُدْرَكة - ثم يأتي أن يَطْرُدَ هذا التعبير فلا يستحي
أن يجزم قطعاً بأنه لا معنى للموت الا الموت .

اذهبوا ايها الملحدون الى اجهد الناس من العامة وأشباه
العامة واقروا الايمان الالهي في كتاب قلبه بعد أن تجرَّ دوه
من لغة اللسان التي شأها المبالغة والتمثيل لما لا يتصور بما
يتصور فانكم تُحسُّون من جهله حين يلتقي بعلمكم ماتحسه

الرثة الفاسدة من نفحات النسيم الذي يتراعى في أحضان
الزهر . وانكم ستجدون في كلامه معاني سماوية كما تجدون
في الطبيعة نفسها ولا تجرم أنكم تصدقون حينئذ ولكن
لتجدوا من التصديق مادة عقلية للشك والانكار ، ثم
لتصنعوا من كلامه اللذ وليمة جديدة للشخرية الجائعة التي
لم تشبعها الكتب المقدسة كلها ولا آراء الحكماء ولا آمال
الإنسانية بل استحال كل ذلك فيها من السرف والضرارة
الى غذاء جعلها قوية والى قوة جعلتها أشد نهما الى
الغذاء ..

وإذا مس أحدكم الضر لم ير بأساً أن يفكر في الله
وأن يرفع الى السماء عيناً لانتبث في محجرها من الزينغ
والتلق كأنه يتكلم بهافي ترددها وانقلابها فيقول نعم ولا ، ولا
نعم وهو كلما أراد أن يغمضها رأى في باطنه قوة تفتحها برغمه
لتريه السماء بل لتريه برهان السماء فلا يعود الى إلحاده الا

وهو مؤمن بأنه ملحد وشاك في آتة مؤمن بذلك ، ولو لا
هذا الشك بل لو لا صناعةُ العقل لكان في كل شريصيب
أحد الملحدين خيرٌ للإيمان كثير .

وليت شعري ماذا يرثك الملحد أيها القمر؟ انه لا موضع
في قلبه للحب لان الحب مؤمن ولا مظهر في نفسه للجمال
لانها مظلمة يسطع فيها جمالُ الشمس ولا يجاوز في عينه
منظر جمره ألهب أو قرص من السرجين يشتعل^(١) . وهو
في حالة لا تعرف هناء^(٢) الفكرة حتى يعكس في الهناء بل هو
كعالم التشريح ينتظر كل يوم من القدر جنة هامة ليخرج منها
برهاناً على حقيقة في علمه أو حقيقةً لبرهان . فما انت أيها
القمرى في رأى عينه على ما أنت الاحجر . . .

-
- (١) السرجين روس البهائم وهو عند الفلاحين في مصر
أخو الفهم الحجرى عند الانجليز
- (٢) الهناء من المصادر المولدة التي شاع استعمالها والمسموع
هناءة ومهنأ ولكننا لا نرى بأسا به

ولكن أيها القمر كن لهم ما وصفوك حتى اذا كقر
بالله ملحد القمه الله منك (حَجْرًا) وكنت للطبيعة وجه
الحقيقة والايان كما أنت وجه الحب والجمال .

الفصل السادس

لكن ياقر السماء ، ويا مثال النية البيضاء ، بل ياشديه
كلمة الرضى المبتسمة على شفقتى الحسناء ، هل تغضب الطبيعة
على قوم من أهلها وهي كالطفل الضاحك ابداً . وهل تعرف
من الناس مؤمنين وملحدين وهي بجمالها شريعة الايمان ؟
تعرف الحسناء الفاتنة من عسى ان يكون لها
مبغضاً ، وان عرفته فهل تراها مستيقنة معنى البغض كما
يتحققه ذلك الخبيث من نفسه وهي التي يلتقى عليها
الحب صلاته وسلامه ، ويتخذ الحسن من الحاظها
إشارته وكلامه ، ولا يقابلها الغرام أينما التفتت في الناس
الا بدمعة أو ابتسامة ؟

يقول الملحدون ان الطبيعة الجميلة تغضب وتحقق لأنهم
لا يريدونها الاخادمة فلا ينظرون الى جمالها ، بل الى فعالها .
ويقول المؤمنون الذين يرون في كل شيء مظهراً للإيمان ان

غضبَ الجميل نوع من جماله . فلتغضب الطبيعة ولتتورد
الوجنات وليتطير السحر من اللحظات ولينبعث الصوت
الصارخ الرهيب من الروح بدون أن يصفيه القلب . ليكون
ذلك وما أشبه ذلك من روعة الغضب فاننا نريد ان نبصر
الحسن كيف يتحول في غضبه جليلاً بديعاً ، كما رأينا في
الرضى لنا وديعاً ، وكيف تظهر فيه الروح قلقاً لا تطمئن
كما ظهر فيه القلب يتأوّه أو يئنّ ونريد ان نرى ولو مرة
انطباق شفتين جميلتين لم يفارقهما الا بتسام فان ذلك منها
ولا غرّوا بتسام جديد .

كل ما في الطبيعة جميل غير أن الانسان لم يتسع بعد
في درس علم الجمال بمقدار ما يسع هذا العلم الجميل فان الأولين
تهيبوا الطبيعة فعبدوها ولم يمسوها ولا بالفكر ولم يقرؤا
من أجزاء علم الجمال على كثرتها الا جزءاً واحداً اصابوه في
أصل الخلق وهو المرأة . وجاء المتأخرون فابتدلوا الطبيعة
حتى ملوها وكأما أخذوها عن أوليئهم كما يأخذ القصاب

بقرة البرهمي من المعبد الى المذبح فلم يبق في ايديهم من
اجزاء علم الجمال الا الجزء الذي اصابوه في أصل الخلق
وهو المرأة أيضا.

بيد أنهم تفتنوا المعان من هذا الجزء لم يتنبه لها أبواهم
الأولون فقليل ما يكشفون عن حقائقها الطبيعية في
اجزاء الجمال مما اشتملت عليه السماء والارض تبيناً لما
يلفتهم اليه الحب من المعاني المستغلة في المرأة.

وكما ان العصفور الصغير في ريشه اللين يكاد خلفه
يكون روح الهواء الذي يحيط بالارض . كذلك نكاد
المرأة الجميلة في وشيها الناعم تكون روح العالم الذي تحيط
به الارض . وكل شيء في الطبيعة يجعله الناس من المسائل
النظرية التي يختلفون فيها لانها موضع الرأي الاجمال
المرأة الرائعة الجمال فهو وحدته قاعدة التسليم في القلب
الانساني على الاطلاق ويكاد الوجه الجميل يكون في
بعض معانيه وجهاً حسناً للتوفيق بين الايمان والاحاد

والفكر نفسه يكون في كثير من الاشياء الجميلة
أجمل منها لانه رُوحها ولانه غير محدود في نفسه بالنظر ولا
بالصفة الجميلة التي يحدثها النظر ، الا الفكر في الحبيبة
الحسنة فانها دائماً أجمل منه لانها رُوحه ولان هذا الفكر
مهما اتسع لا يجد نفسه الا محدوداً بجمالها .

فيا سيداتي الجميلات ، يا قصائد ديوان الغزل الانساني ،
يامعاني شعر الجمال الالهي ، ياورقات الورد التي نقلت من
الجنة الى الارض لتنتفع برأحتها حتى تستحق الارض ان
تكون أرضاً يعاش فيها . ما غلبت الطبيعة التي لا تغلب وانما
ظهرت على الانسان الضعيف الذي طغى على الطبيعة وتوهم
نفسه اشد منها قوة فرحمته من قوتها السماوية وتسلمت
عليه منكن بأضعف منه ، بل بالتهديد والدمعة والابتسامة
من المرأة الجميلة التي ضعفها انساني ولكنه على ذلك من
قوة الطبيعة . وما إن رأيت كثلثة أشياء لا تضبط اذا

اندفعت ولا تردُّ إذا اندفعت : موجةُ البحرِ المضطربِ
ودمعةُ الحزينِ اليائسِ وإرادةُ الحبيبةِ الجميلةِ .

وهذه الارادة هي المعنى الذي ينتظم الثلاثة فهو على
انفراده بالثلاثة جميعاً لأن علم العدد في عرف الطبيعة يناقض
أحياناً العلم الذي نعرفه مما تتكرر فيه الوحدة كلما تكرر
العدد . فلا يمكن في (حسابنا) أن يكون الاثنان واحداً
لانهما اثنان ، ولكن الطبيعة في حساب الحب مثلاً تعدُّ
الحبيبتين واحداً ولا يعدّها كذلك الا لانَّهما اثنان ...

الطبيعة جميلة بل هي فوق أن تكون جميلة لان هذه
اللفظة (الجمال) واحدة من الاصطلاحات المهمة التي تمثل
قصور الانسان اللغوي فقد تعاون أفراد هذا الانسان
الضعيف على أن يخلقوا الطبيعة خالقة معنوية فصوروها
بالغة وضبطوها على عظمها كما يضبط تاجر اللؤلؤ حساب
مافي حقيبتة الصغيرة لاحساب مافي البحار . وجروا في

أكثر المعاني السامية هذا المجرى قرب معنى تجده ملء
السموات والارض وما تجده من صفة تُحدِّثُ الا وهي حدُّ
لصفة اخرى ومع ذلك تراهم يُدِّمجونه في لفظة واحدة
مُقْتَضِبَةً لا يُعرف بها معرفة صحيحة تصفه كما هو ولكن
ليؤثر التأثير الذي يقوم في الانسان مقام المعرفة الصحيحة
فان الناس يعيشون بهذا التأثير في معظم أمورهم ويعتدُّونه
لقلة علمهم علماً وإحاطة .

وهذه اللغة الناقصة التي تصور الطبيعة وتحدِّثها هي في
ذلك كالعين التي ترى الطبيعة لتصفها باللغة - وما اللغة في
الحقيقة الا نظر عقلي بل هي الفاظ النظر - وما العين
من الطبيعة إلا كالمرآة التي تقابلك بالشيء كما هو لتفهمه أنت
كما تريد .

فلفظ (الجمال) مما يؤثر في النفوس وقد يصحُّ أن
يكون وصفاً تاماً لشيء معين كجمال الحسناء فان العين
تعرفها بدياً بأوصافها ثم يعرفها القلب بمعانيها ثم يعرفها اللسان

فيقول إنها جميلة فتلبسها اللفظة لاتضييق عنها ولا تقصُر،
لان فيها مرؤنة النظر والاحساس معاً . ولكن ذلك
اللفظ بعينه لا يلبس الطبيعة ولا يصف للنفس جمالها بل
يكون منه كقطرة الماء في البحر تجري فيه ويجري بها
وايست من صفته ولا تكوينه في شيء الا في القياس
المنطقي واهون بالانسان ومنطقه في حقائق الطبيعة .
ومن البلية - ولا بلية مثلها - أن الانسان لا ينفك
يحمل في رأسه فكراً مادياً هو حقيقة عيشه في هذه الدنيا
فاذا عرّض له شيء من جمال الطبيعة أسرع هذا الفكر
المبتذل فلا العين وأطلّ منها فلا تنفذ صفة من صفات
الجمال الطبيعي الا بسطان منه . فيرى هذا الانسان الشيء
الجميل وكأنه يحدث عنه نفسه انخساعاً بأصابع الاعمى الذي
يتعرف الاشياء بامسها . وعلى مقدار ما في الانسان من هذا
الفكر القبيح يكون مقدار قبح الطبيعة الجميلة في عينه
وكأني من رجل يمر بين الرياض والبساتين التي هي غزل

الأرض ولا يتقدّم ما فيها من الجمال إلا بمقادير أثمانها... وآخر
يرتقى الجبل الوعر الأشمّ الذي هو حكمة الشعر الطبيعي
ولا يعيبه إلا بأوعاره وأحجاره التي لا تلامّ دعتّه ورفاهته
وان كانت هي في نفسها محاسن الجبل وثالث يرى البحر
الذي هو فكر الطبيعة السيّال فيفرق حتى كأنه يرى الموت
يتدحرج في أمواجه ليختطفه من الساحل . وهكذا ترى
الفكر المادى يلبس كل شيء بذلة من بذل المصانع
والحوانيت أو كفنّاً من أ كفن القبور أو ثوباً من
أثواب الحداد . وأحسب أن التاجر المفلس إذا تأمل في
أوراق الوردة الناضرة التي تشبه أن تكون تاريخ ساعة
خجل في خد العذراء الفاتنة فإنه لا يرى فيها الأرقام دفاتره
التي هي تاريخ النكبات والخراب . . . !

فمن اين يجتلى الانسان جمال الطبيعة وأنى له ذلك
وقد مسخها هذا المسخ كله ولم يأخذها من يد الله كما وضعها

ولكن تناولها من فكره كما صنعها ، فجاء بها من ناحية
هجومه وكأنها همٌّ جديد أو ذكرى همٌّ قديم ؛

إذا اردت . أيها الانسان أن ترى جمال شيء من الطبيعة
فاجعل عينك أقرب إليه من فكرك بل انزع فكرك هذا
الا الخفيف منه كما تنضو ثيابك إذا طلبت السباحة في
اليم ، والا الطاهر منه كما تخلع نعليك إذا أردت الصلاة
في المسجد والا الصافي منه كما تطرح شغل قلبك إذا
وقفت بين يدي الله . فإن أنت سبحت بثيابك فانما تمثل
الغرق ، وان دخلت المسجد بنعليك النجستين فانما تمثل
الإلحاد ، وان واجهت ربك وانت مشغول بنفسك عنه
فانما تمثل نفاق الشيطان ، وان نظرت الى الطبيعة من
فكرك المادى فانما تمثل العمى الطبيعي ...

أين الانسان الذي يرى في كل شيء من الطبيعة أشعة
تبتسم كأنها تحييه فيبتسم لها كأنه يرد التحية . فما ان يزال

دهره مُضيئاً كذلك بأشعة ابتسامه وان غمرته ظلماتُ
الدنيا كما لا تزال الجبابرُ مشعلة بنارها الالهيه وهى فى
حلك الظلام؟

اين عاشق الطبيعة بين هؤلاء الناس . اين ينبوع
الضياء الحى الذى تراه لسعة نفسه وتراعى ابتسامه متألئلاً
فى طرفى السماء والارض كأنه مُنفجر منها جميعاً . يأخذ
من الله فيبتسم ويأخذ من الناس فيبتسم . ويتناول كل شيء
فيستشعر منه ترنح الطرب كأن فيه بعض الرجفات^(١)
الكهربائية التى تُحدثها نارُ الفجر الشمالى الجميلة على
ما يصفها الطبيعيون .

اين الانسان الذى لا تنحدر من اذاته دمة عين
فيكون ابتساماً فى أفواه الناس كيفما طلع عليهم لان
الطبيعة كلها ابتسام فى فه . ويراد المبتسم حليف الحزن
الأحق الذى لم يفد من علم الحزن الا فلسفة الحماقة — يراه
(١) أى الاهتزازات

كَأَنَّهُ لَا إِشْرَاقَهُ وَانْبِسَاطَهُ وَتَرْقُوعَهُ ظِلُّ مَلِكٍ يَتَنَقَّلُ عَلَى
الْأَرْضِ بِتَنْقَلِ هَذَا الْمَلِكِ فِي السَّمَاءِ . وَيَتَوَهَّمُهُ لَا يَحْزَنُ
وَلَا يَبْكِي حَتَّى كَأَنَّ طَيْبَتَهُ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا جِبِلَّتْ مِنَ النُّورِ الْمَزْجِ
بِدَمُوعِ النَّدَى الْخَالِدِ فَلَمْ تَعُدِ السَّمَاءُ تُسَبِّبُ لَهَا مِنْ حَوَادِثِ
الدَّهْرِ دَمْعَةٌ لِأَنَّ فِيهَا دَمُوعَهَا السَّمَاوِيَّةَ . وَلَا يَدْرِي الْمُبْتَسُّ
الْمُظَلِّمُ فَيَلْسُوفُ الْحُزْنَ الْأَهْمَقَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي
يَحْسِبُهُ ظِلُّ مَلِكٍ أَمَّا هُوَ إِنْسَانٌ يَحْزَنُ وَيَبْكِي كَسَائِرِ النَّاسِ
وَرَبَّمَا ضَاقَ فَانْفَجَرَ بِأَكْيَافٍ وَلَكِنْ بَكَاءَهُ مَعَانٍ مِنَ التَّسْلِيمِ
لِلَّهِ تَقَطَّرَتْ فِي بَعْضِ ابْتِسَامَاتِهِ كَمَا تَنْبَثِقُ دَمُوعُ الْفَرَحِ مِنْ
عَلْبَةِ السَّرُورِ .

وَالرَّءِ إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَّحِدَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرَهُ فَلَا
يَتَسَخَّطُ أَحَدُهُمَا وَلَا يَتَبَرَّمُ بِأَمْرِ اللَّهِ فَقَدْ اسْتَطَاعَ بِذَلِكَ أَنْ
يَبْتَسِمَ الْإِبْتِسَامَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي يَكُونُ إِلامَةً نَبْوَّتَهُ الْإِنْسَانِيَّةَ
فِي هَذِهِ الطَّبِيعَةِ .

إن الرجل من علماء الفلك حين يجد في تعرف أسرار
السماء واستكشاف آثار الله منها يرى نفسه كأنه يعيش في
الأزل الذي لا فناء له وكأن في حياته بصيصاً من أضواء
النجوم يصله مر صده فلك الكوكب نفسه . وكذلك يرى
عالم الجمال الطبيعي الذي تهبّه الطبيعة حاسةً سادسة من
الابتسام أنه يعيش في ربيع دائم كأنما هو زهرة تغتدى
بنور السماء فلا تروح ناضرة مابقيت في السماء لمعة نور .
وهذا رجل قد بذل مقادته لله طائعاً وتوكل عليه راغباً
فترى تسليمه لله قد جعله الله فيه قوة لينة كطبيعة اللجة التي
تصدم كل شيء ولا يكسرها شيء لأنه ليس قوامها من
الصلابة المادية التي تنكسر وانما شدتها من اجتماعها واندفاعها
كصلابة الثقة التي تكون من اندفاع العقل بالارادة القوية
وآية ذلك انه اذا رفع اليك عينه رأيت فيها نظرةً مستطيلة
كأنها آتية من السماء وترى لها عليك سلطاناً كأنها نفس

قوية لا نظرةً ضعيفةً إذ تنبعث من نفسه النقية الى عينه
الصافية فلا يعترضها الا القلبُ المطمئن الضاحكُ الذي هو
في جسم عالم الجمال كالطفل الجميل في بيت السعداء تأتي به
السعادةُ مرةً ويأتي هو بها في كل مرة . وتلك النظرة انما
هي نبوغٌ في بعض العيون كما أن في العقول نبوغاً بيد أن
الطبيعة لا تظفر بها الا في الندرة كما يظفر الزمن بجبارة
العقول الذين ينصبهم حدوداً للتاريخ الانساني . (١) . فربما
غبرت الاجيال المتطاولة مجنونةً بهذا العارض الزمني حتى
تصيب لها عقلاً من عقول التاريخ . وربما غبرت الطبيعة
أجيالاً متطاولة وهي تشكو عى الناس عن جمالها حتى
تأنس في أحدهم عيناً من عيون الجمال .

ولقد يحسب الاجلافُ من غلاظ الاكباد أن

(١) نوابع الارض لا يكونون الا نهاية لتاريخ قديم او

بداية تاريخ جديد

الطبيعة مُبتدلة ويجدون لها غلظةً في أنفسهم كأنهم
ينظرون اليها من ألبادهم وكأن ظلالهم لبست كل شيء فيها
فحيثما انكفوا لا يرون الا طيفاً من الموت تنفر في وجهه
ظنون الفرع . واذا لفتهم الى الجمال الرائع لفتوك منه الى
قبح يعرفونه ولا تعرفه لانك تعتبر شكل الصفة الجميلة وهم
يعتبرون شكل المادة كأنهم يريدون أن يدشقوا ربح الزهرة من
طينها . وكان الاشياء الجميلة عندهم الفاظ من لغو الكلام تتألف
من الحروف التي تدل بتركيبها على المعاني ولكن لا معنى
لحروفها تلك ، إذ هي مؤلفة على نسق غير الذي يمهدهونه من
نسق الصناعة المادية . فياوضح هؤلاء وأولى لهم ثم أولى (١)
أريدون أن يستعين الله بقوم من أهل الحرف والصناعات
على إصلاح ما خلق وتنسيق ما ابتدع ليجدوا فيه الجمال
الذي يصلح لأوهامهم ، ويكفي بمعانيه مقادير أفعالهم ؟

(١) كلمة تقال في الدعاء على الرء

لتنطفيء الشمس إذن كلما رمدت عين إنسان. ولينسدل
الليل ثانيةً كلما اراد فاسق أن يتلصص في مشرق الضحى.
ولينهمر الغيث كلما جفت لهأة من الظأ في الصحراء. وليكن
كل نهار على ما تشاءه البلد الرعناء يطلمع بالصباح عليها
ربيعاً وينقلب في الظهيرة شتاءً ويحول في الأصيل خريفاً
ويرجع في العشيّة صيفاً وان انقرض الناس بهذه الحياة
الذريعة كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشيةً أو ضحاها.
ويحكّم أيها القوم ألا يمكن أن تكون أذواقكم
سقيمة قبل أن يكون لكم هذا السقم في الطبيعة؛ وليت
شعري ماأمركم والانحدار فاذا كنتم في الأسفل ثلجتم
بذلك^(١) ورأيتم أنه للأسفل منه إذليس لكم بعده منحدر
فجعلتموه في نفسه مرتقى ولم ترفعوا أبصاركم الى الأعلى

(١) يقال تلج صدره اذا قر وانشرح ووجد برد اليقين

لستيقنوا انكم في أسفلِ سافلين وأن سيدكم الصعود
لا ما أنتم فيه من أمركم :

ليس جمال الطبيعة ارادةً ولا شهوة وان هذه الساعة
الفلكية الكبرى (السماء) لا تقدم الوقت ولا تؤخره من
أجلنا فانه لا ينتهي اليها من هذا العالم كله الا الأَحَاط. ولو
اجتمع أهل الارض في صعيد واحد وصوروا الحاظهم جميعاً
الى ذرّة من الهباء ما تحركت الذرة ولا قدمها ذلك ولا
أخرها.

ومصادفات الأقدار المضطربة التي لا تأخذ من الناس
في ناحية معينة بل تتاح للسعداء والأشقياء جميعاً من عالم
المجهول بسبب مجهول في وقتٍ مجهول. انما هي مصادفات
في وهم ذلك الانسان الذي لا يريد أن يرتقب من الغيب
حقيقة محزنة كما ينتظر منه النعمة السابغة. وهي في ذاتها
حقائق ثابتة تجري سواءً على سنن مطرد. ولما كان الانسان

لا يروجها الا خائفاً ولا يخاف منها الا راجياً فهو بطبيعته
يصبغها صبغة من الحزن مادامت في غيها حتى تقع . فلا
يجعل هذا الانسان وهمه قاعدة للحقيقة ولا يرين أن
حقائق الجمال الطبيعي مما يكون طباقاً لأوهام كل نفس
فإن ذلك تغيير للنفس لا للطبيعة

وعندي أنه لا فرق بين الملحد الكفور الذي لا يحسب
حقيقة الموت الاموت الحقيقية فيظل في قياس وهمه عائشاً
معاش كأنه بدن ميت لا نفس فيه وبين ذلك الجلف الذي
لا يدرك أسرار الجمال الطبيعي فتظل هذا الطبيعة في قياس
وهمه بالغة ما بلغت من الحسن كأنها دينار زائف جديد
يُعجب من رونقه ويُعجب من كساده.

الخادم يفزع من غضب سيده اذا صاح به الصيحة
فِيستطار لها ولكن المظمن المفكر اذا دارت في مسمعه
هذة الصيحة أصغى منها لنغمة موسيقية تلبس منها نفسياً

خاصاً لا جمال له الا في الغضب . فاطمن أيها الانسان قبل
أن تستطلع جمال الطبيعة وتأملها بالعين التي لم تستحل من
فكرك المادى الى ذاكرة فليس فيها الا النظر البحت
تصبه النفس من شعاعها فانك حينئذ تشهد الطبيعة كلها في
نفسك على النحو الذى يريك هذه السماء كلها في النهر
الصافي . وتجس من السرور والابتهاج والعظمة كأن
هذا الفكر الالهى الكبير الذى نسميه الطبيعة قد شملك
أو اشتمت عليه فيوحى اليك انك مخلوق لغرض أسمى من
تلويث الأرض بفضلات أمعائك ... ومناواة الناس فيما
لاحقيقة له الا إيجاد هذه الفضلات وإخراجها^(١) وان
كانت هذه الحقيقة القدرية من كثرة ما يسترها الانسان
به من الاسباب المختلفة كالفضلات نفسها في جوف هذا
الجسم الحى .

(١) كتابية عن أسباب العيش

حينئذ وقد فاض الجمال على نفسك ترى أنك أنت
أصبحت قطعةً من هذا الجمال وأنه لم يكن يحول بينك وبين
الامتزاج به الا نفسك التي غيرتها أو هائمك حتى لم تعد
نفساً من صنعة الله بل من صنعتك وصنعة الحوادث وحتى
صارت كأنها كتلة شر تفضل الحيوان الأعجم^(١) بالحيلة
العاقلة ويفضلها بالحول الطائل فيما عدا ذلك مما هو من طبع
النفس الحيوانية

فلولا النفوس التي تدرك قيمة الجمال ما وجدت على
الارض نفوس تدرك قيمة الخير، وهل هذا الا خير الا بعض
جمال النفس؟

لله أنت أيتها الطبيعة الجميلة والله جمالك الفتان الذي
يترك من حسنه بقيةً في كل عين تحدد اليه فتجعل كل
شيء تصادفه جميلاً كما يُثبت المرء عينه في ساطع من النور

(١) الانسان حيوان ناطق وغيره من الحيوان أعجم

هُنِيَةً ثُمَّ يَلْتَفِتُ يَمَنَةً وَيَسْرَةً فَاذَا كُلُّ شَيْءٍ فِيهِ شِعَاعٌ
مِنْ ذَلِكَ النُّورِ .

وَلِلَّهِ ابْتِسَامُكَ الَّذِي تَرْتَوِي مِنْهُ النُّفُوسُ وَيُخْلَقُ مِنْهُ
الْحُبُّ وَالْخَيْرُ وَأَرَاهُ فِي كُلِّ زَهْرَةٍ تَفُوحُ ، وَفِي كُلِّ نَجْمٍ
يَلُوحُ ، وَفِي هَذَا الْقَمَرِ الَّذِي يَتَصَبَّى الرُّوحَ كَأَنَّهُ طَلْعَةٌ
حَبِيبَةٌ الرُّوحِ ، ثُمَّ أَرَاهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ الَّتِي
تَفِيضُ عَلَيْهَا هَذِهِ النِّعْمَةُ السَّمَاوِيَّةُ لِتَنْطِقَ مِنْهَا بِأَبْلَغِ مَا تَقِيْمُهُ
النُّفُوسُ مِنَ الْمَعَانِي كَمَا تَنْطِقُ الْحَسَنَاءُ حِينَ تَبْتَسِمُ وَهِيَ
لَمْ تَتَكَلَّمْ .

وَلَكِنْ وَاهَاً أَيُّهَا الْقَمَرُ وَاهَاً أَنْ لِهَذَا الْإِبْتِسَامِ رُوحًا
هِيَ الْخَالِصُ النَّقِيُّ مِنْهُ بَلِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِي غَيْرِهِ خَالِصٌ
أَوْ نَقِيٌّ . فَاذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْهَدَ رُوحَ الْإِبْتِسَامِ يَتَلَّأَلُ فِي
غُرَّتِكَ فَانظُرْ إِلَى تِلْكَ الَّتِي لَمْ تَلْبَسْ مِنْ حَرِيرِ لُبِّ الْأَبْيَضِ

غانيةٌ أجملُ منها في ليلة من ليالى الحب وتأمل بربك أيها
القمرُ كيف تتحرك بروح الابتسام في شفيتها الرقيقتين
حياةُ الهوى .

الفصل السابع

ذلك ابتسام الطبيعة بالؤلؤة ثغرها التي يسمونها القمر
وذلك جمالها الفتان الذي خلقت المرأة لتصفه وتدل عليه
فلها بها الناس وسحرت أعينهم حتى لم ينظروا اليه واليهما،
الاعلى أنه مخلوق ليصفها ويدل عليها، فتصغر الطبيعة ما تصغر
عند بعضهم وتكبر ما تكبر عند الآخرين ولا تكون في
الحالين اصغر ولا أكبر من امرأة جميلة.

وأى أمرٍ غمّة^(١) لا يتجه للرأى فيه كجمال المرأة
الذي هو جنة الارض ونارها فمن أجله وجدت الديانات
والشرائع والفضائل ومن أجله وجد الخارجون عليها
والفاسقون عنها؛ ومن الأعضاء النفسية الممتنعة على

(١) أى مبهم لا وجه لليقين فيه

الانسان والوارثة منه^(١) معرفة العاشق المستهام صحة الرأي
فيما اذا كان الجمال دليلاً على قوة الخالق أو دليلاً على ضعف
المخلوق .

ولو سالت تاريخ النفس الانسانية عن كل أمر عسير
مُشكِل ثم سالتها عما هي المرأة الجميلة ؛ لأصبت لكل
سؤال جواباً قد يحسن السكوت عليه ولو تسامحاً
الاجواب هذا السؤال فان المرأة الجميلة هي ما يفهمه كل
انسان منها بنفسه لأن الجمال المتسلط بطبعه والحب الخاضع
بطبعه قد جعلها في الطبيعة تعريف نفسها .

ولا شيء أقوى من الجمال والحب معاً الا دموع هذه
الجميلة بمرأى محبها فان كل ما في الطبيعة الانسانية من حنان
ورضى وحب وعبادة وعقل وجنون ونحوها مما تكسوه

(١) أى الباقية مع الانسان الى فنائه وكاف من دعاء رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أمتعني بصري واجعلهما
الوارث مني »

ألفاظ اللسان بحروفها ونبضات القلب بمعانيها — لو ذاب
لما قطرت منه الا تلك الدموع التي تنحدر كأنها كلمات
سائسة تفسر لعين العاشق معنى روحه تفسيراً صامتاً تجرى
فيه أحياناً نظرات متفترة هي كل ما في تعبير الأرواح من
البلاغة .

فليت شعري هل تستروح الطبيعة الجميلة كذلك الى
الدموع اذا كانت هذه الدموع من أقوى ما في طبيعة الجمال؟
هل تبكي الطبيعة أيها القمر فتكون انت في ديباج
السماء كأنك دمعة في منديل الطبيعة لم تجف بعد وقد بدأ
فيها الجفاف (١)؟

أترمي الطبيعة بأكية وهي تلك التي ترسل بعض
ضحكها دموعاً تتندى بها أجفان العيون النجلاء التي تجعل

(١) إشارة الى المحو الذي يري في القمر لانه يشبه جفافاً

الرجال العظام صغاراً ، وهي عيون النساء والأطفال لتبقى
الطبيعة وحدها منفردة بالعظمة الرائعة التي لا يداخلها الغرور
بها ولا تداخل الضحك منها ؛

إني أرى الذين لا يعرفون جمال الطبيعة ولا يفقهون

حديثها يتخيلونها أبداً باكية لانهم من لواعب الهموم بحيث
صارت الدموع أسرع إلى أعينهم من الابتسام إلى أفواههم
وقد أبوا على العيون إلا أن تترج فيها الروح بالمادة فجعلوا
أكثر عملها البكاء إما بالدمع الذليل وإما باللحظ المستكين
الذي يكاد يدمع من ذلته . أما الأفواه فحسبها من صناعة
العيش في أكثر من تراهم في الأرض مضغ الطعام ومضغ
الكلام فهي قليلاً ما تبسم وكثيراً ما يكون الابتسام
فيها شنعاً فلا ترى إلا أفواهاً قد جاعت^(١) كأن القلب

(١) جلع الفم اذا صار بحيث لا تنضم شفتاه على الاسنان
وتلك حالة من صفة الاشتمزاز

يتهيأ ليتفعل منها على وجوه أولئك الاصدقاء الذين يدعون
الصدقة بوجوههم الكاذبة.

وقد أحسب في أصل البكاء أن روح الانسان
لا تزال تتأذى أحياناً مما يُطيف بها من أدران المادة حتى
إذا أرادت أن تنحى ذلك عنها اغتسلت في باطنه بنور
يُدبجس لها من القلب ثم ينحدر عنها الى العين فلا يُخالط
الجفن حتى يتسدر اليه الدموع فترسله وكأنه لما فيه من
الحياة عاطفة قلبية أسرف عليها العم في ضعفه فذابت .
وقد يستطير ذلك النور في الابتسام فلا يذهب الى العين
بل يسترسال في طريق الدعاء والكلم الطيب من الفم
ويكون في الشفاء معنى البكاء كما هو في الاجفان البكاء بمعناه
ولكن ما بال هذه الدموع القدرة التي أصبحت
رعاة أو صناعة في الاعين وهل هي نور أو مادة سائلة
تجري من القلب الخبيث كلما نكبه أمر فانقلب فهراق^(١)

(١) هراق وأراق بمعنى

مافيه ؟ أننا لا نعرف من أمرها شيئاً فان الانسان لم يهتد
بعده الى علم تحليل الدموع تحليلاً نفسياً وما أحسبه سيهتدي .
وهو على أن تاريخه في الارض مغمور بالدموع كالارض نفسها
ثلاثة أرباعها مياه فانه لا يحسن الى اليوم أن يرد العبرات
قبل انها لها من أعين الباكين والمحزونين إذ ليس إحسانه
من قوة الروح بحيث يتغلغل في مسالك هذه العبرات
وما تحليل الدموع الا درس لمذاهبها في النفس وهيئات
ذلك في عالم المادة هيئات .

بيد أننا لو ابصرنا الملائكة حين تمر على أكثر من
يكون صناعة أو تصنعاً أو مصنعةً لآبصرناها بلا انوف
لان لها قوة التشكيل فيما تختار من الهيات وهي تخشى
أن تصعد الى السماء وحشواً آفاقها من رائحة ذلك الدمع
الذي درنت به الاجفان المترعة وكاد يكون صديداً
تقيحت به جروح العواطف فانفجر .

إبك أيها المحزونُ فانك ستجد من يكفكفُ
دموعك كما وجدت من أرسلها ولكنك لا تجد من يتداركها
ويردِّفك منها خيراً لأن اهل الخير لا يعرفون حزنك - إن
عرفوه - حتى تبكى بالعين الثَّرةِ وحتى تتوسل اليهم
بالطرف المغرورِ ق كالطبيب لا يعرف مرضك في صحتك
ولكنه يبلو مرضك فيعرف كيف كنت وقد يعرف كيف
تكون .

قيل لفيلسوف أُمَلِّق حتى ساء عليه أثرُ الفقر : من
يدفنك اذا مت ؟ فقال من يؤذيه تننُ جيفتى ... وكذلك
لا يدفن دموعك الا من يؤذيه منظرها من اهل النفوس
الرقيقة فانهم لا يهتملون أن يروا من عينك جيفة همَّ
تسيل بها وتترى . واذا أصبت في الناس من لم يتسبب
لإرسال دمعة من عين انسان أصبت فيه من
يحتاجه منظر الدمعة في عين الانسان .

إن الأطفال يُحبون فِطْرَةَ أَنْ يعبثوا بالماء ويتغامسوا
فيه فلا أنكر على الرجال محبتهم أن يعبثوا بالدموع . ولكني
أستنكر الانسان يجعل قلبه شاطئاً لأرجلهم إذ يخوضون
فيه خوِصاً ولا يجعله لُجَّةً تَجِيشُ على أعماقٍ من نفسه
وعواطفه فلا ينطوي لها شيء الا طَوَّته ولا يدافعها شيء
الادفعته . ولست أصدق الضعفاء الذين يزعمون ان احداً
من الناس لا يُطيق أن يجعل على ما يُبتلى به من مجاهدة
نفسه عنصراً من عناصر الحياة فاني لأرى بعيني ولا أرى
أحداً الا وجدته يتحمل أكثر الناس لضرورات الحياة
الجسمية ولو هو رغب في الحياة النفسية لتقضت عليه
ضرورتها ان يحمل من نفسه ولو كارهاً بعض ما يحمله من
الناس كارهاً أو راضياً . والمرء حين يضلُّ زمام النفس
من يده انما يضل طريقه الذي اختطه في الحياة وتعتسف به
النفس طُرُقَ الآخريين فلا يزال فيها تابعاً أو مطروداً وهما

خُطَّتَا نُكْرٍ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا عَلَى الْحُرْسِ وَسَوَاسِيَةٍ .

وليت شعري ماهي الهموم ؟ ان الانسان يفسر
هذه الكلمة المفردة بمجموع ما حفظ من تاريخ
مصائبه ويرى انه لم يفرغ من الشرح بعد ولم يكشف عن
دقائق المعنى وإنما أجمل من وصفه ما وسعه فكأنه يفسر
حقيقة الحياة التي تستنفد الكلام كله ويكون بين خطأ
صراح وصواب ممزوج ثم تبقى الكلمة الصحيحة عند
الله لا يكشف عنها للانسان لثلا يغشاه من سر الالوهية
فَيَنْهَتِكَ حِجَابَ قَلْبِهِ (١)

واهاً لك أيتها الحقيقة الانسانية ! أين أنت من
الانسان وأين هو منك ؟

ومبال هذه الالوهام التي يعتزم لها الانسان المضي في
فضائها كأنه منطلق ثم لا يكون أمره وأمرها الا كالفأرة
حين يرسلها الهرا الخبيث تحت أشعة عينيه المتسرّتين من

(١) كناية عن الموت فجأة

الجوع فتنتلق المسكينة في فضاء... ولاكنه محاط من كل
جهة بالاظافر الحادة

أيتها الحقيقة لا يطفر بك الأُسعداء الفطرة وما
الطبيعة كلها الايمان بك ودليل عليك فلو خلاص الانسان
من وهمه خلاص من همهم ولعرف كيف يقدر الحزن بسببه
الحقيقي لا بالآمال المتوهمة التي زالت بوقوعه . فان تقدير
المصيبة بالأمل الذي كان يرجى لو لم تقع أمر لا يمتثل
حدًا بل لا يزال يتسع من ظن الى ظن حتى يهيج السخط
في نفس الحزين والسخط مع المصيبة مصيبة ثانية .

ولو كان المقامر يحزن على مقدار ما أضاعه دون المقادير
الوافرة التي قامر عليها وكان يرجو ان يفوز بها للمعاد امرؤ
قط الى المقامرة بعد الخسارة الأولى . وكذلك لو كان
الانسان يهتم للمصيبة على قدرها في نفسها لا بمقدارها في
نفسه لذهب بها وقتها لأن الوقت يسير بكل شيء

تدفعه فيه ولكانت هذه المصائبُ في تاريخ الانسان كأنها
عُطاسٌ يُزعج قليلا ثم يُعقبُ انتهاضًا من عثرة الرأس
وراحة .

وما إن يزال الوهم يُخيّل للانسان ان الوقت ثابت
بالمصيبة التي نزلت به كأنها تغتذي من عمره وكأن الصبر
يعاف ان يتغذى من عمرها فلا تبرح تمارسه وتشادّه وتجد
به وتتلعب كأنما طرحَ عنقه منها في غل يملك رقبتَه بالأسر
الذي لا فكاً له وبذا يجمع المسكينُ على نفسه الحقيقة
التي تحاول تركه فلا تستطيع والاهام التي يحاول تركها
فلا يطيق . ولو ثبت الوقتُ بشيء هذا الشبات لهلاك
سعداء الناس قبل الاشقياء لان الراحة التي لا يمدُّ في حبلها
الألم كالآلم الذي لا تمدُّ في حبله الراحة^(١) . وما الآلام الا

(١) يريد الراحة الطويلة التي لا يدفع فيها الألم فكانها

راحة الى غير مدى .

رياضة نفسية تشدُّ بها النفوسُ وَصَلْبُ فلا تهدها أثقال
الحياة التي لا يضطلع بها الا ذو المرَّة السَّوي (١)

ولولا هذه الآلام لأقمرت الارض لان الانسان
الذي لا يتألم ليس إنساناً أرضياً بل ينبغي له أن ترفعه
الملائكة وتلوَّى به في جوف السماء ثم تكون مدة عمره في
الارض مسيرة ما بين الدنيا والآخرة على أجنحة الملائكة .

ويُخلَق ويموت كما تخلق ذبابة آذار الخالية التي يزعم
الشعراء انها تولد اذا متع الضحى فلا تزال تطن في الروض
وهي لا تجد مدَّ صوتها (٢) الا أزهاراً وألواناً أريجاً ونسيماً
وتحمل وتضع وهي لا تنفك تتنفس الحاناً ثم تطلع عليها
شمس الغد بالموت كما طلعت في الامس بالحياة ولا يمتد

(١) القوي الصحيح الاعضاء .

(٢) أي لا تجد فيما تصادفه الى منتهى ما يبلغه صوتها .

الضحى حتى تتخذ من بعض الازهار كفنناً وتموت وهى
تتغنى ثم تلوح في شعاع الشمس كأنها نقطة سوداء قطرت
من مداد الموت على صفحة من ورق الازهار لكي تذكر
بها روح الربيع ان ليس فى الارض خلود .

ولا يحسبن الانسان انه المستبد بالارض يقوم عليها
بنظامه ويبرأ منها فان الارض تقوم عليه من قبل ذلك
بنظامها بل هو نفسه معنى من هذا النظام الذى لا ترخص
فيه وانما يمضي على الانسان وغير الانسان بعزيمة واحدة
وفيه الألم والراحة جميعاً .

ومعها نعم المرء فلن يبلغ مبلغ الزهرة النضرة العطرة التى
تجتمع اوراقها وتماسك مدة بقوة الحياة العطرية ثم تلم بها
نسمة تستमित فى تخافتها وتجيئها وهى من الضعف كأنها صدى
قبلة الحسنة المدعورة فتنتثر اوراقها وتهدم هذه البنية الملونة

كما تهدم لذات الحركة الضعيفة من جفن النائم ساعة
يستفيق .

والحياة الارضية في طبيعتها غليظة جافية مستحكمة
لو ترك لها الانسان كما هي لأنشأته خلقاً أرضياً بحتاً
ولكن الله جعل فيها مواضع رقيقة تشف عن السماء وما
وراءها الى مصدر القوة الأزلي وهذه المواضع هي الآلام
فهي التي يرفع منها الانسان يده الى السماء بزراعة انسانية
متبرئاً من قوته مقرراً بضعفه وهي كذلك التي يرسل منها
الانسان نظره الى الارض برحمة سماوية تنفذ الى قلبه بالمعاني
الجملة من شقاء الناس وبأساء الحياة . فلا يستروح هذا
الانسان من ألمه الا وقد اكسبه الألم فضل الانسانية وبر
الفضيلة وصحة الإيمان وقوة النفس وإن مرض يوم واحد
بتوجه فيه النفس الى الله وتعرف كيف تنزهه عن دنياها
الارض وشهواتها لهو أجدى لها وأرد عليها بفضيلة الانسانية
من قطع دهر في دراسة كل ممتع من كتب الفلسفة .

وبئسَ لَعَمْرُ اللهِ الرجلُ يكونُ في صرَعته وما فيه الا
نَفْسُ وانت لا تدري أيهما أضعف ؛ أهذا النفسُ الذي
يتعثرُ في صدره أم ذلك الجسمُ الذي يَتَنَفَّسُ كَفِرَاحِ
الطير^(١) . ثم تراه متى أحس القوة قد ثار كما يثور الوحشُ
من ضجعته وكان في أمله أشدَّ حَنَقًا وكلما تمادى به الألم
سخط وأستحمق كما يكون العاجز الموترُ الذي يأكل
انتقامه من نفسه ولا يزال يَشْرَهُ اليهام بقي الرجل عاجزا .
فهذا وأمثاله ممن تشفُّ لهم السماء موعظة واعتباراً . وهم
يَتَبَخَّصُونَ^(٢) لها تعجباً وإنكاراً ، انما يسخطون على ربهم
سخطاً لا يشبهه الا ما يكون من حَنَقِ الصبيان اذا فُضِّل

(١) أي لا يتحرك الا حركة ضعيفة وذلك معنى التنفّس

(٢) البخص بتحريك الخاء لحم تحت الجفن الاسفل يظهر عند
تحديق الناظر اذا أنكر شيئاً وبالغ في انكاره . ولم تركمة أليق
يما أردناه في هذا الموضع من هذه اللفظة الخشنة لانها تصوير
وجوه كالحة بألوان مثلها كالحة

أحدهم عليهم فنقلوا ساخطين على الافضل ومن فضله جميعاً
يرون سخطهم كأنه تفضيل لأنفسهم... وهو ان لم يكن
توقحاً ونذالة فليس بدونهما .

وهذه الطائفة من الملحدين ومن لا يُحَدِّد ولا سكتة
يؤمنون بلا إيمان... انما هم أنفسهم بعضُ آلام الانسانية
فليس بدعاً ان يكون في آلامهم ما يقتدح هذه الحقيقة
النارية فيهم والافكيف يؤلمون الانسانية اذن؟ على ان
اكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة فيصبئون عليهم من
النسيان والإهمال ما يصبُّ الغاسلُ على الميت من الماء ليرسل
معه بقية طهارته الى الآخرة. ولو هم أدركوها لرأوا في
هذه الثورة الانسانية مظهراً عجيباً من حكمة الله ولرأوا
ان كل شئ يتألم حتى الديانات والفضائل فانها تتألم بسخط
هؤلاء ووجودهم .

وليست كل الهموم التي تصيب الانسان مما يلوي بها القدرُ

عليه فان من ذلك سمياتٍ يجنيها الانسان على نفسه بسوء
الخوف من اللواتي هم رحمتهم وقدرته كالتوقع لما لم يقع والخذل
مما لا يؤقن بوقوعه ومعالجة المستقبل والاهتمام للمستحيل
أو لشبهه المستحيل ثم المصيبة الآكدة التي لا تبقى على
النفس الا أسوأ ما فيها لانها محاولة استخدام القضاء
وتصريف القدر على غير ما يريد الله وهي الحسد .

فهذا وما أشبهه إنما هو من مصائب العقل الذي
يحاول الملحدون تسميته إله الارض فلا يكون قضاؤه على
صاحبه الاماترى .

واعتبر ذلك بان هذه المصائب لا تكون على أشدها
جميعا وأما الا في اقوى الناس عقلا وأضعفهم ايمانا مع ان
المؤمن الساذج الذي يكاد يعد في رأى العقلاء . . حيوانا
يبيع نفسه ويشتري لها مستريا ، لا يعتريه شيء منها بل
هو في أمن من جميعها وكان حوله من قلبه سورا مضروبا

على الحياة باطنه فيه الرحمة وان كان ظاهره من قبله العذاب .
وهذا المؤمن يعرف بفطرته السليمة تلك الحقيقة الناصعة
التي يجهنها اكبر الفلاسفة من الملحدين ويجهلها اكثر العقلاء
فلا تكون كل المصائب الانسانية التي يُنَافِح بها القوم
بعضهم بعضاً الا عقاباً عقلياً على هذا الجهل . وتلك الحقيقة
هي ان الله لا يمسك عنا فضله الا حين نطلب ما ليس لنا او
ما لسنا له .

ومع ذلك نضل تخادع أنفسنا بالآمال اللدّة ونخرج
عن الحقيقة ثمناً لوهمها كما يشتري السكر أحلام نفسه بعقله
ثم تذهب الاحلام والعقل معاً وتتركه الخمر برذائله وجنونه
وأمرضه أصحّ تفسير لها بين العاقلين

اما المصائب الالهية فان الله يرسلها برحمة فيستلب فيها
من الانسان إحساسه أو أكثره ويعطيه أسباب العزاء
أو أكثرها وبهيء له من أمره ما يجعله يتلقى المصيبة بروحها

لا بروح النعمة التي أصيب فيها وبذلك لا يشعر انه ضُرب
بيد الجبار ولكن بيد الرحيم ولا يكون الا كالذي يُغمض
عينيه عند الوَسْنة ثم ينحدر الى الابدية وقد يتحطم في
مهواتها وما أحس من آلام الموت ونزعه أكثر من
تغمضة العين.

وعلى هذه الصفة الرحيمة يفترس الحيوان ماهو
أضعف منه فيستلب احساس الضعيف حتى لا يدري
ماهو من مُفترسه ولا ما كان فيه مما يصير اليه ثم
يُكيدُ بنفسه وكأنه لا يحس أن له نفساً فتهق روحه
كانما أبت هذه الحياة الميتة . وما أحسب هذا ونحوه الا
(تخديراً) قبل (العمليات) الالهية فتبارك الله قدوسٌ كلُّ
شيء رحمة وعلماً .

والانسان لم يكن يوماً منسياً من الله ولكنه لا يزال
ينتَبذ المكان القصي من الظن كأنه يريد أن يكون

منسياً منه فهو يشك في رحمة الله وعنايته كلما رآه عليه
الخير^(١) إن عرف أن له رحمة وعناية . وهو يجادل فيهما
ويستريب بهما وباللَّه في ذاته إن لوى رأسه ورَكِبَ أثره واه
ضالاً أو مُضِلاً . وما يُجَدِّدُك أيها الأحمق أن تهبط بعض
الأودية وتأخذ في الصَّبَاح لتستخرج الصَّدَى كأنك أنطقت
الجماد . . . وإنما هو صوتك رجع إليك لم تزد فيه السماء ولم تنقص
منه الأرض ؟ فهما جادلت في الله فإنك لا تعدو هذا
العَبَثَ بنفسك ولو أنكرت فأنكر الصدى ورَميت بِالْحِجَةِ
فرمى بها وجئت بالأقاويل فتابعك عليها لم يكن لك من
ذلك كله ظهيرٌ ولا نصير على الحقيقة إلا كما يكون للممرور
يحدث نفسه ويحسب أن له حلقين . . .
ويح هؤلاء الناس ألا يرون المصائب والآلام تُرْسَلُ

(١) الريث الإبطاء

دِفَاقًا عَلَى الْأَرْضِ كَمَا الْمَطَرُ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُصِيبُ مَنْ
تُصِيبُهُ إِلَّا قَطْرَةٌ فَقَطْرَةٌ كَأَنَّهُ مُكْتَنَفٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِفِضَاءِ
وَاسِعٍ يَجْعَلُهُ كَهَذِهِ الطَّيُورِ الَّتِي تُرْسَلُ عَلَيْهَا السَّمَاءُ مِنْ أَقْطَارِهَا
ثُمَّ هِيَ مَعَ ذَلِكَ نَابِتٌ طَافِيَةٌ عَلَى الْهَوَاءِ كَأَنَّهَا الْأَمْوَاجُ الَّتِي
يُجِيشُ بِهَا الْبَحْرُ أَبَدًا وَلَا تَفْرُقُ وَلَوْ هِيَ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ
لَا غَرِقَتْهَا بَصَقَةٌ مِنْ إِنَاءٍ مَتْرَعٍ . أَوْ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُرَدِّفُ
الْإِنْسَانَ شَغْلًا بِنَفْسِهِ الضَّعِيفَةِ مِمَّا يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي الْحَادَةِ
وَرَبِيتَهُ إِذْ يَنْتَحِلُ شَيْئًا مِنَ الْإِلَوهِيَةِ لِيُنْكَرَ الْإِلَوهِيَةَ أَوْ
لِيَشْكَّ فِيهَا ؛ وَهِيَ هَاتِ يَجَادِلُ أَمْرًا فِي اللَّهِ أَوْ يَسْتَرِيبُ بِهِ أَوْ
يَتَصَفَّحُ عَلَى أَعْمَالِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِيسُ مِنْ أَمْرٍ ذَلِكَ عَلَى مَا فِي
نَفْسِهِ كَأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ مِقْيَاسَ الْإِلَوهِيَةِ وَالْأَفْهَى النَّبِيُّ الَّذِي
لَا يَسْقُطُ عَلَى عَقْلِهِ وَلَوْ اسْتَمَرَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي السُّكْتِ حَتَّى
يُرْمَى فِي جِنَازَتِهِ (١)

(١) كَأَنَّهُ أَضَلَّ عَقْلَهُ فَلَا يَعْتَرُ عَلَيْهِ . وَيُقَالُ رَمَى فِي جِنَازَتِهِ أَيْ
مَاتَ لِأَنَّهُ يَحْمَلُ وَيُوضَعُ فَذَلِكَ هُوَ الرَّمَى فِيهَا

أولاً يستشعر الانسانُ مما تُزلزله مصائبه وآلامه ان
روحَه تتخَطَّى مَقَرَّها في باطنه فكأنه يتزلزل بِخُطُواتِها . وقد
يراهَا فِصَلات عنه حين تُنتزى به الآلام المَبْرِحَةُ حتى اذا
انتهض من صرَعته ونشط لما ينشط له الأَصْحَاءُ رأى كأنه
مُقبِل على الدنيا من حُدود الآخرة ؟

وإذا كانت النفس خرساء لا تُفهِم الا بالحركة والاشارة
فما أرى هذه الحركة منها في الانسان بين المرض والصحة
الا كحركة نقض الدليل الفاسد بالدليل الصحيح في العقل فاذا
هو سَفِه بعد ذلك نفسه وسفه الحقَّ منها وحاول أن يرتبطها
من إنكاره وجحوده ومكابرتة وعنتته بالسلسلة الربوض " فانه
ينقلب ما يشاء ملجداً أو فاسقاً وشيطاناً وتبقى نفسه كهي على
طبيعتها الالهية لان الدين النفسى ليس ما يزعمه العالم في مجادته
ولا الجاهل في محاولته ولا المؤمن في إقراره وتصلبه ، ولا
(١) أى التي تربض بصاحبها فلا يستطيع فيها الحركة لضخامتها
وثقلها ولزوقها به ،

الجاحد في إنكاره وتعجبه . وإنما هو قلب الانسان الذي
يخفق في العالم والجاهل والمؤمن والجاحد بحركة واحدة كأنه
فم يسبح الله بكلمة الحياة .

ياشقاء الانسان ويا ويله اذ يرسل الله على قلبه شعاع
الرحمة والايان ويأبى من غلبت عليه شقوته الا ان يضرم
من هذا للشعاع الالهى ناراً ينضح بها غداء شهواته ويطيبه
فلا يزال يحتطب لها من كل خبيث جاف حتى تراه كأنه قدر
تنزُّ أزيزاً . وكأن في باطنه شظية من جهنم يسطع وهجها
في عينيه فلا تقع ألحاضها على شيء الا رجعت منه بمعنى
خبيث وتركت فيه معنى أشد من ذلك خبيثاً . ولوزادت
هذه النار في جوفه خلقت منها للناس شيطاناً — ولكنها
من رحمة الله بالناس — نار قليلة لا تكفي لشيء أكثر من
عمله الشيطاني

ذلك . فانظر الآن ماذا يترك الشعاع الالهى الذي
وصفنا في قلب المؤمن بالله ؟

إنه يجرى في أحزانه كالماء يتدافع في مسيله وتراه
يطرد وينعطف ويتمعج لأنه ينساب بالحياة فكأنه يبحث
في جهات نفسه وأثامها عن كل عاطفة ميتة فلا يترك على
جانب الحياة الاماترك الماء على عطفيه من خضرة وانضرة
وبرد وسلام . فيخوض المرء فتن الدنيا ويرتكس فيها وهو
مطمئن يحمل في باطنه سلام الله ومهمات كنفات عليه النوائب
وعصفت به الحوادث فانها لا تجرد منه الا ظاهراً أمسكه
باطنه وباطناً استمسك بيد الله كالسفينة في البحر نكتب
لها السلامة فلا تجري الا على قبرها ولا تنبعث خطوة الا
كانت لها فراراً أو ما يشبه الفرار من الموت وكأنها في
ذلك البحر اللجى إنما هي روح الارض أنشأت تهتز
وتضطرب .

فلتكن أيها المحزون أكبر من همومك وأحزانك
بالغة ما بلغت . اذا كان الموت يعدُّ شرفاً لمن مات مدافعاً

عن الحقيقة معها كانت وفي أي صورة تمثلت فإن البقاء في الحياة يكون أحياناً أعظم شرفاً منه لمن يُدافع مصائب هذه الحياة عن ضميرٍ فلا تستيحه ولا تزعج الفضائل الإنسانية التي اعتصمت به .

وإذا اشتبكت أيها المحزون بهذه الآلام فكُن قوياً على مصارعها وقد تصرعك مرة إذا بدرت منك غفلة فلا تكن حينئذ جباناً في النهوض كما كنت جباناً في الوقوع . وليست فضيلتك في أن تنزل على حكم كل ضرورة فإنك عند حكمها طوعاً وكرهاً ولكن الفضيلة أن تعرف في نزولك من جهة كيف تصعد من جهة أخرى . وما دمت حركة من حركات الفلك فلا تحاول أن تقف به عن مسيره هوى يعترضك أو تحرفه إلى جهة تعين لك فتة لاشئ ويستمر الفلك سائراً واني رأيت دوايمة الماء لا تلتوى عن تيار النهر الا لتفتح لنفسها قبراً فيه . واذالم تكن قادراً ان تنال ما تطمع

فيه فتكن قادراً أن لاتطمع فيما قطعت عنك أسباب نيله .
فن غاية القدرة في الحالتين الرضى . وانت في اكثر ما تعاني
انما تتألم بأوجاع الناس من حيث تؤذى نفسك ولا تغنى
عنهم من شيء فانك لاتملك الا نفسك ولا تملك نفسك الا
فضائلها وانت على ذلك تجارى بآمالك اقواماً من الاغنياء هم
أصابع الدنيا في كفيها و قدميها ^(١) . لا يعرفون الا فلسفة الحسن
ولا فلسفة لهم الا ان كل حقائق الدنيا لو حللتها الفلسفة او
العلوم أو الاديان لانتها على كل حالة حقائق ذهبيه
هكذا اصطاح الناس كأن الله لا يعطى ولا يمنع الا بعد أن
يتواضعوا فيما بينهم على ما يسمونه إعطاءً او حظاً ما يسمونه
منعاً وحرماناً وكان ليس في الارض غني عقيم بلغ من الدنيا
ومن الكبر ومن العقم جميعاً ثم نظر الى كنوزه العريضة
ونظر معها الى طفل يلعب في بيت رجل فقير ويملأه بالضحك

(١) كناية عن ان فيهم العالى والسفلة

فعرف من هذه الحقيقة الحية مقدار ذلك الوهم الميت الذي
يسميه الغنى . وكأنَّ ليس في الأرض رجل ذكيٌّ عَبَقْرِي
لا يملك الا عقله وهمة نفسه وهو مع ذلك لا يسرُّه أن
تكون له بهما كنوزٌ فدم غبي له من المال وبلادة العقل وصغر
النفس مقاديرٌ يوازن بعضها بعضاً . وكأنَّ ليس في الارض
محبٌ دنف يهوى عادةً فاتنة وقد عرف ما هو الغنى في اصطلاح
القلب كما عرفه الذكي في اصطلاح العقل وكما عرفه العقيم
في اصطلاح النفس .

ان الطبيب الحكيم لا يجارى العليلَ ولكنه ينظر الى
العلة وان الله سبحانه وله العزة لا يبالي باصطلاح الناس
ولكنه ينظر الى مصلحتهم حين يعطى ويمتنع فليس في
الارض فقير قط الا عند نفسه ولو اطَّلَع كل انسان على الغيب
لما اختار الا ما هو فيه

وكذلك لا تنسل أيها المسكين المحزون ريش جناحيك

الذين تطير بهما لتنظرون ماتحته من الجلد فترك نفسك
بلا إيمان وتدفع قلبك بلا توكل وتسقط آخر الامر لغوامع
هؤلاء الذين لا يرتفعون عن الارض في طيرانهم نحو السماء
الا مقدار ما يرفع غبار الأرجل في طريق السابلة .

ويحي كيف ترامت بي شجون الحديث أيها القمر
الضاحك المطروب حتى جعلت غبار الأرض بيني وبينك
يل غبار الارجل في طريق السابلة ؟ لقد شبهت عليَّ هموم
الانسان هذا المحو الاسود الذي يزين جبهتك حتى لحسبته
عاطفة من عواطف الرحمة رسمتها بعض الغصون في تلك
الجبهة المتهلة كأن السماء تجاوب بها نظرات المحزونين في
الارض ، فاعترضت هذه النظرات أراها وأخبرها لا علم
علمها فما ألقى علي حتى صرت هماً متجسماً وانتظمت
تلك الاحاظ في قلبي فما هو الاصفحة وماهي فيه الأبيات

القصيدة الالهية التي ترجمتها بلساني هذه الترجمة الضعيفة
كما يعبر لسان المتألم عن أوجاعه ببعض الأنين والزفرات .
وليت شعري أين أنا من مبلِّغ ذلك وهل في الأرض
من يستطيع أن يضع منطقاً للغة القلب الانساني فيترجم به
قصيدة الآلام التي تسيل رقة لان كلماتها كلها (عيون) والتي
تنسكب فيها كل قوى النفس المختلفة كما تندفق الجراح على
تمط واحد بدم واحد ويكون ألم الحب أبلغ معنى فيها وتكون
أنت ايها القمر بضيائك وجمالك وآمال العشاق فيك
وابتسامات الحسان لك فلسفة أخيل لهذا المعنى اليتيم ؛
ايها القمر ! ان كان في الناس من يظن أن الفلاسفة
تكون دين المستقبل الراقى فانما هي فلسفتك المؤمنة الجميلة
التي تجمع بين الايمان وهو الحب السماوى وبين الحب
الذى هو الايمان الارضى . وغاية الرقى لهذا المستقبل البعيد
أن يكون أفق آماله ، ادنى اليك بظهارته وجماله ، وما من

رجل حكيم يحلم بهذه المعيشة السماوية على الارض أو يفكر
فيها الا وهو يقرأ تاريخ أحلامه في سطور أشعتك ويرى
هذه الاشعة نفسها كأنها معاني ذلك المستقبل تهبط كل ليلة
الى الارض لتعتاد الاقامة فيها ثم لا تلبث ان ترى الناس قد
هبوا من مضاجعهم حتى تفر الى السماء مدعورة وتتوارى
مع الاحلام كأن الناس تشابهوا عليها وهم نيام فلما رأتهم
منبعثين رأوا أكثرهم ليسوا من الناس ! . .

الفصل الثامن

وكم نأجلك أيها القمر من عاشق قبلي فإنك ما انفصلت
عن الأرض الا ليجعل الله منك ألقاً لآمال الإِنسانية الجميلة .
بل أنا لا أحسب عاشقاً من لا يُناجيك ومن لا يأتي
بدموعه واحزانه وهو اجسه وآماله فينطرح في هذه الأُجبة
التي ترسلها من شعاعك وينغمس فيها ساعة ثم يخرج وكأنه
جسم من نور يخفق في جنبه قلب كالنجم .

ويترك في نورك بقايا ظلمات نفسه الحزينة تراها السماء
قزى بها كيف يكون ظلُّ هذا القلب الانساني المتألم . ثم
تجمع انت هذه البقايا وتُدرجها في قطعة من شفق الفجر
تُشابه الدم الذي كانت تغتدى به من الحياة وتدع الزهرة
الحسنة ترسل عليها نظرة من نظراتها الفتانة لتعرف أي ثمن
من الأُنفس والقلوب تُشترى به في الأرض ابتسامة
كابتسامتها في السماء

وبعد ذلك تَرُوغُ بها من وراء الصباح رَوْغَةً ثم
تدفنها في بعض السكواكب المنطفئة التي هي مقبرة الأبدية
في غَيْبِ الله .

فلا يزال دأبُ العاشق الحكيم أن يذوب في شعاعك
لكيلا يبقى من نفسه غير المادة التي تذوب في شعاع الجمال
فيكون بجملته نفساً روحية تتلقى الحكمة العالية عن النظرات
والابتسامات كما تتلقاها عن الآداب والشرائع .

وقد ترى أقواماً ممن يدعون الحب سفهاً وغلظة وإن
أحدهم ليذهب فيقذف بنفسه في ابتسام الجميلات كما ترمى
بالحجر في الماء العذب لا يعدو بطبيعته أن يستنقع فيه .

وترى ذلك الجلف لما يعالج من شهوات الحياة كأنه قدر
تضطرم آخر النضج وهو لا ينفك يزعم أنه يشعر بالحب وأنه
مبتلى به ويقول لك حسبك من حب مضضه أشد على النفس
من اسعار الجوع... ثم ترى أضلاعه وقد أحاطت بقلبه كالسياح
حول المكان الخرب وهو قلب هدمه الحب حتى سواه

بمعدته كما يسوى الحائط المنقوض بالأرض ولكن الحب لم يبنه لان القلب لا يبنى على أساس من المعدة وليس في الرجل أمتن من هذا الأساس... لا بل ما أحرى ذلك القلب أن يكون معدة ثانية تؤتى غذاءها من سفالته ولؤمه فلا يدخله الطيب حتى ينقلب خبيثاً .

ويأتى هذا الرجل ولا يكون الا غنياً - وقد أدل بنفسه وأشرق وجهه كأن فيه كل معاني ذهبه وفضته وان كان هذا الوجه الجلدي كأنه بعض ما خلق من أحذية الرذيلة... فيريد ان يتسفه الجمال عن ماله وثروته^(١) . ويريد ان يشتري الحسنة الجميلة التي خلقت للحب لا للبيع . وكأنه والله رجل جاءت به اللعنة المقعدة ليحملها ويسعى بها فحملها وحمل الخزي معها وألقى عليه الله غضبه من عيني الجميلة التي اشتراها .
اشتراها من فقرها بماله ومن تعاستها بقبحه وكل

(١) تسفه عن ماله اذا خدعه عنه ليستأثر به والحسان انما هن
أموال الجمال وكنوزه

تجارة الجمال في يدي الفقر والتعاسة . واشترها وانقلب بها
وكان لها واسفاً عليها خزانة من حديد حبست فيها اللؤلؤة .
فيا أيها القمر لقد زعموا قديماً أن هذا المحو الذي تراءى
به هو عين ثرة وأنها تفيض بقطرات من دموعها في النلس
على زهرة من أزهار الفجر . وزعموا انه لا يفلح السحر الا
اذا وفق أهله لدمعة من دموعك يأخذونها من شفتي
الزهرة كأنها كلمة القضاء . فأرسل أيها القمر كل ما في عينك على
زهرات فجر الحب ليمتزج بندى هذه العيون الساحرة التي
يبكى بها الجمال المحزون في أسره . وعسى يفلح سحرها في
أولئك البهائم فيمسخهم أناساً^(١) يحسون بشعور الجمال الذي
يُخلَق في كل حسناء ليكون حياة لجمالها وجمالاً لحياتها
فان الله يابى ان يجعل في الارض أوفى السماء قوة تجعل
الحسان الجميلات يشعرن من الغلظة والفضاظة بما يشعر
به اولئك البهائم .

(١) كأن الانقلاب الى الانسانية يعد مسخاً ...

يارحمة لهذا الجمال . وجه وضيء الطلعة كأنه السعادة
المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه الى جمال
ووفتنة كما تجول قطرات الماء في غصن الياسمين ثم تتحول
في تلك الزهرة الطاهرة العطرة الى جمال وابتسام . وكان
معاني الحسن التي تتحير في خديه حقيقة إلهية تطلُّ على
النفوس من وراء الشفق .

فيه حاجبان كأنهما تمثيل للأعضاء الخطى في الهندسة
السماوية التي وضع الجمال على قواعدها . يمتدان فما أدرى
ما أمثلهما به غير اني لا أظن الفتنة القلبية تمتد مجتمعة الا
يمثل هذا اللطف . وينتهيان الى طرفين دقيقين لا يفهم
يهما الا تقبا القلب من جانبيه .

وتحتها عينان تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا
يقفم عنها الا كأنها ناطقة . وتضطربان فكأنما يضطرب
معهما جلال السماء إذ يلوح في صفائهما . وتغضيان تقرأ

ودلالا فكأنما تلقيان على الروح قرة تحلم فيها من أحلام
السماء وتستيقظ . وتدوران بما يشبه الحياة والموت كأنهما
الكلمتان الالهيتان كن ويكون في محجرين واسعين كأنهما
في هذا الجمال منفذ القضاء والقدر .

وخدان تحير فيهما الجمال فوقف يتلفت عن يمين وشمال .
وتظن من التها بها بشعاع الحسن أن العقل الجميل انقسم فيهما
الى فكرين يتوقدان ليقتبس منهما الشعراء نار النبوغ التي
يضطرم بها العقل والقلب والروح فيصرن جميعاً شعلة واحدة
تضيء بالشاعر على آفاق الحكمة والحب والإيمان . وتراهما
أسيلين بارزين فيا لله هل هما ثديان صغيران من الورد
يرضعان طفل الحب الذي هو النحلة الالهية في لذع الارواح
واطعامها العسل والمعسول ؟

وبين الخدين أنف جميل تنحدر عليه للحظات الفاتنة
وتلتقي اليه الاشعة الوردية فهو خلاصة الجمال . وتراه بين
ذينك الخدين كالأصناف بين القوتين فالنظر اليه واليهما ترجع

الى قلب المحب بالخوف المطمئن الذي لا ينفك يخوفه الحب
ويبعثه عليه

ودون ذلك فمَّ أصغرَ من فم الحقيقة كأن في
شفتيه الرقيقتين الحمرأوين رُوحَ الدم. ولقد استدارتا على
ثغر هو الكأس التي يُسكب فيها حنينُ الروح ممزوجاً
بلهفة القلب معطراً بابتسامات العواطف الشريفة أزهرت
في ريع الغرام، ويُرشفُ كل ذلك في قبلة لا يراها العاشق
السعيد الا روحاً من الحب يُؤتمنُ عليها ضميرُهُ.

يارحمة لهذا الجمال كله إذ يُباع كأنه عرض من

العروض التجارية وهل يكفر عن جريمة القتل أيها
الأغنياء أن تكون دية القتل كفنًا من خيوط
الذهب؟

ألا بُعداً إلا بُعداً. ولعمري أي سُخرية من الجمال
أقبح من إرسال الجميلة لتعلم بأحظها أظفار الوحش؛

غفرانك اللهم أفرغت السماء فلم يبق فيها رَجْمٌ
وواحد يسقط على شيطان من أولئك الشياطين فيتركه عبدة
خالدة في تاريخ التجاره بالجمال الذي أبدعت ؟

أيوثق فؤاد الحسنة بالسلسلة الربوبية التي صيغت
من كلمات الزواج ثم يُشدُّ طرفها في يد الرجل الذي تكرهه
أو يستكرهه لانه شخص البغض ويقال مع ذلك انهما
ارتبطا برباط مقدس . . . ألا تسمع أيها البغيض صلصلة
هذه السلسلة في دموعها أو في تهديدها أو في أنينها وكل
ذلك لعينات تنسكب من جوانب روحها ؟

سوءة لك أيعيد التاريخ نفسه وتكون أنت الصنم
الذي تُقرب له الذبيحة وعيناه جامدتان تبعثان الرعب
والخوف وليس فيهما من كل تلك القدرة الكاذبة الا
جمود ينظر بهزء وتهكم تلك النظرات الميتة ؟

عزاء أيتها الجميلة التي يغتدي قلبها من البغض ذلك

الغذاء المسموم فينبسط على شبابها خيالُ موتها ويجعل
حياتها نزعاً واحتضاراً . وأصبح في ظل ذلك الغنى كواطيء
ظله في الرّمضاء يحسبه الاحمقُ باردَ القدم لانها في الظل
ولا يدري أنه الظل الناري الذي يغطي الحجر بالدخان .

عزاءاً أيتها الجميلة التي انفرد قلبها في هذه الدنيا
الموحشة وكل محب يرى له قلباً يخفق مع قلبه فكأنه
يعيش فيها بقلبين يضاعفان اللذة والسرور في حياته . أما
أنت فليس من قلب يخفق بالهوي مع قلبك حتى ولا
قلبك يخفق معك لانك لا تحسّين منه شعور الحياة في هذا
الموت .

عزاءاً عزاءاً فقد كتب لك القدرُ ياروضَةَ الورد
أن يأخذ اليك طريقه ذلك المحتطبُ الجاني الذي يكاد ظل
روحه يجعل للعشب الاخضر يابساً فلم يكن له قرار الا
أن تذوي أغصانك وتنتثرى أوراقاً ذابلة ليملاً منك
حباته غير مُبالٍ الا كما تبالي البهيمة ما عسى أن تُزهق من

أرواح الزهر حين ترمرم من نبات الارض " وقد
هدم منك ياروضة الورد قصر الشفق الارضى فلا عجب
أن تكون روحه لثقلها وظلمتها كأنها قطعة من روح
الليل :

ها أنت اليوم يازينة الآمال كالباب المهدم بين الماضى
الذى كان قصراً وبين المستقبل الذى هو من أنقاض هذا
القصر فما يرى الناظر من هذا الباب الا كيف تهدم الحياة
وكيف يشور غبارها .

بلى قد يكون شقاؤك مثلاً لتبين حقيقة غامضة
يراك الناس فى حزنك فيفهمونها وما أكثر مثلها من حقائق
الحياة التى لا تضرب لها الامثلة الا من القلوب والا كباد
فاخبرى الناس من هؤلاء الحمقى والمجانين ان الذى يطلب
سعادة نفسه بالغنى ويريد ان يشتريها من الله بالمال الكثير

(١) أى تأكل وتتناول وأصلها ترمرم

تحويلاً على البنك . . . إنما هو كذلك الأُبه المغرور الذي
يستقبل شمس الظهيرة وهو يريد أن يطرح ظله أمامه
وتأبى الشمس إلا أن تجعله إلى الوراء . فلا يكون لهذا
المخدوع بنفسه إلا إحدى اثنتين . إما أن يستدبر الشمس
ويجري على قواعد النور في الحقيقة لافي الوهم فيرى الشمس
نفسها قد ألت الظل أمامه كما يريد . وأما أن يمضي
على ما تخيل فيكون أمامه ظله ولأنفه بعد ذلك الرغم
والدغم . (١)

ويا لله ما أغلى الحقائق في هذه الدنيا إذا كان من ثمنها
مثل هذا الجمال الغض الذي يرخص في شرائه القلب

(١) يقول الرب في ناشئة الغيظ رغماً لأنفه . فإذا استفحل
الغيظ أتبعوا الكلمة وقالوا رغماً دغماً . فإذا تميزوا من الغيظ
قالوا رغماً دغماً شنغماً فتكون اللعنة باللفظ أشد عليهم من اللعنة
بالمعنى وهذا ما نفهمه من ورود هذه الكلمات الثلاث
في اللغة

على حين ترخص في شراء القلب الحياة . الحقيقة الخالصة
كالصديق الخالص المخلص يجد الانسان من المال والمتاع ما يبذله
ثمنا للدنيا فيحوزها ولا يجد ثمن الصديق الا أن يبذل له
ذات نفسه

أى عدو أصيقت نفذ الى حياتك أيتها الجميلة وقد تكفى
نظرة واحدة من عينيك النجلاوين وابتسامة واحدة من
فمك الوردى ليؤلف الشاعر من وصف تأثيرها في نفسه
كتابا خالدا في فلسفة الصداقة وجمالها . ولذتها في النفس
وحلاوة آمالها لقد انفذوا في قلبك مسمارا من الذهب . . .
واصبحت لا تشعرين من ثقل الحياة وآلامها الا أن هذه
الشمس مطرقة ذهبية ترفعها الاقدار لتدق بها عليه من
لذن تشرق الى أن تغيب . فالألم الشديد في بقاءه واشد الألم
في نزعها وإذا نزع الموت أو غير الموت أوردت لك الملائكة
يوما فجاءتك في ثياب الحدادين لمعالجته واجتذابه فهل ينترع من

فلميك هذا الثقب العميق الذي أحدثه فيه وملاً غوره بالالم
ومرارة الحياة ؟

يا باعداوة ثابتة بعقد وشهود ... وبين القبور والرضى
والبركات ... وفي ثياب العرس أيضاً ... ويا لها سخرية فظيعة
من القلب الانساني وما فيه من الفضيلة والحب . ويا له من
نفاق بارد يراءى به الله خالق القلب وتقابل به الملائكة
موئل الفضيلة وتواجه به هذه الحسناء عروس الحب في
وقت معاً .

وكم من مرة رأيت عالماً يوثق عقدة الزواج بخطبته
وكاهناً يربط القلبين بكلماته رباطاً مقدساً فكنت أهتز
من الفرق الى القدم خشية أن تكون روح المصادفة العمياء
في ثياب هذا العالم أو الكاهن فان ثلاثة تأتي الى
الانسان من لقاء نفسها وهو ينتفى منها جهده . هذه
المصادفة والعداوة والنحس . وقاما أحس إنسان باحداها ؟

الافوجيء بثلاثها جميعاً وكذلك أشأم ما يعد في الشر
تعدد شؤمه .

وأنت أيها القمر حدثني بربك . ألسنت تسخر من
هؤلاء الكتّاب والادباء والمصلحين الذين يصفون داء
الشرق المريض المحتضر بمقالات أكثر عدداً من تراب
القبر ثم يريدون ليصفوا دواءه فتراثم من اختلاط آرائهم
وتنوعها كأنما يحملون صيدلية بحالها الى بيت المريض زعماء
أنهم مها أخطأوا فلن يخطئوا أن يكون في بعض ما تحتويه
من السوائل والعقاقير ما فيه شفاء . . . ولا يعلمون أن التاريخ
الانسانى وان لم يكن نساءياً غير أن المرأة هي التي تلده وترضعه
بأخلاقها حتى يتماسك ويدرج ثم يذهب يافعا . وان
العظمة التاريخية وان كانت مترجلة إلا ان في باطنها دائماً
روح أنثى حتى إنها أعظم ما تكون اذا همت همها لشيء من
آمال هذه الروح .

السفينة لا تزال تجرى بمجدد فيها ما اتجها في الحركة
الى جهة واحدة فان اختلفا وتدابرا في هذه الحركة التوت
السفينة أولاً واضطربت ثانياً وانقلبت آخرأ . وهل
الرجل والمرأة الامجدان في زورق البيت (العائلة) الذي
يعبرُ بهما نهرَ الحياة ؟

أستَ تعلم أيها القمر وأنت ابن الصحة والعافية
الذي هَرِمَ ولم يزل فتى أنه مادمننا لا نرى عند رأس هذا
الشرق المريضِ الالحىَّ وشواربَ فاننا لا نرى ثَمَّتَ
الا أعشاشَ الجرائمِ الاجتماعية . . . وأنه اذا وُجد هناك
نساء من أمهات الحب والفضائل وُجد معهن من يلدنهم
من رجال العزم والمبادئ الثابتة . وهل الحب والفضيلة
والعزم والمبدأ المخلوق منها جميعاً الا عناصر الطبيعة الحية
في التاريخ الذي لا يموت مع بقاء مادته من الانسان ؟

واها لهذا المريض الذي يوثقونه بتلك الرُّبُط الممزقة

من المقالات ويدفونه في هذه الأَكْفَانِ المنشورة من
الصحف ولا يدعونهُ يتنفس إلا من جراثيم اللحي
والشوارب التي تُرِيهِ ظلال الآخرة... وهو في كل ذلك
الكرب الذي أخذ بأَنفاسه لا يجد السبيل إلى رَوْحٍ
من الحياة الطيبة في نفس امرأة فاضلة .

الشرق المريض

يا مَنْ لهذا المريض المدنف العاني
مُرَدِّدِ النفس من آن إلى آن
إذا رأى الليل ظنَّ القبرُ شقَّ له
وظنَّ أنجمهُ آثارَ أكفانٍ^(١)
ويحسبُ الصبحَ بابَ الموتِ لاحَ له
وفوقه الشمسُ قُنْلُهُ فتحةُ داني

(١) كأنها قطع مبعثرة من كفن أبيض متمزق

نِضْوَةٌ عَلَى رَمَقٍ فَاثٍ يَعْيشُ بِهِ
لَكِنَّهُ رَمَقٌ مَهْمَا يَعْشُرُ فَاثِي
مُطْرَحُ الْهَمِّ فِي كُلِّ الْجِهَاتِ فَا
يَرَى بِكُلِّ مَكَانٍ غَيْرَ أَحْزَانٍ
تَوَزُّهُ . كَيْدُهُ . حَرَى مُعَلَّقَةٌ
مِنَ الْأَضَالِعِ فِي أَعْوَادِ نِيرَانٍ

* * *

يَا مَنْ لَهُ إِذْ يَرَى الدُّنْيَا كَمَا اسْتَبَهَتْ
بَقِيَّةُ الْحَلْمِ فِي أَحْقَانِ يَقْظَانِ
يَا مَنْ لَهُ إِذْ يَرَى الْأَشْيَاءَ وَاهِنَةً
كَمَا بَدَأَ أثرَ الذِّكْرِى بِنِسْيَانِ
حَى طَرِيحٌ يَرَاهُمْ يُلْحِدُونَ لَهُ
لَمْ يَسْتَحُوا أَنْ تَرَاهُمْ مِنْهُ عَيْنَانِ
يَا مَنْ لَذَا الشَّرْقِ يَا مَنْ لِلطَّرِيحِ عَلَى
لِحْدِ الزَّمَانِ بِأَيْدِي شَرِّ أَعْوَانِ

مُسْتَيْسِينَ ولما يَأْمَلُوا أَمَلًا
والْيَأْسُ دَاءٌ لِنَفْسِ الْعَاجِزِ الْوَانِي
وَيَسْبِقُونَ الرَّدَى لِلْقَبْرِ وَهُوَ قَضَاءٌ
فِي الْغَيْبِ (١) فاعجب لهذا الشأن من شأن
وَيُدْعِنُونَ وَلَا مَا يَدْعِنُونَ لَهُ
لَكِنَّهُ خَلُقُ يَقْضَى بِإِذْعَانِ
وَيَسْأَلُونَ الْمُنَى تَجْرِي بِأَعْمَلِ
كَلْرِيحٍ جَارِيَةٍ فِي غَيْرِ أَرْسَانِ
سُخْفٌ وَأَسْخَفٌ مِنْهُ وَهُوَ مَعْجَزَةٌ
وَصَلَّةٌ أَنْ يُسْمُوهُ بِإِيمَانِ

* * *

يَا وَيْحَ لِلشَّرْقِ مِنْ أَمْرِهِ لَبِيبِ
كَلِّهِمْ مَلْتَبِسٍ فِي رَأْيِ حَيْرَانِ

(١) اي لا يزال معلقا لم يقع بعد

من كل مُضْلَعَةٍ ترمى بِمُعْضَلَةٍ
رمى النَّحُوسِ لذي بوسِ بِحِرْمَانِ

تَعَقَّدتْ وَالتَّوَتْ كالمستحيل فما

تُريك من موضع فيها لا مكان
لو صوروها لكانت صورة امرأة

مصبوغة من جهالات بألوان
ربوا لذا الشرق يا قومي ممرضة

تحنو عليه بإحساس ووجدان
تطبُّه روحها مما ألمَّ به

فان أقتل داء الشرق روحاني
يرى عواطفها الأديان خالصة

إذا تلعب أهلوه بأديان
يرى بها عهدَه عهد الملائك في الـ

بر الطبيعي في حسن وإحسان

يرى حناناً كعهد الانبياء وما
تشتاقه الروح فيه منذُ أزمانٍ
يرى الفضائل بعد اليأس قد ظفرت
أماهنَّ ونالت قلبَ إنسانٍ
ربُّوا له الأمَّ ياقوم فلو وُجدت
في الشرق مطاح في ذلِّ وإهوانٍ
تلك التي ترفع الدنيا وتخفيها
بطفلها فبؤِّ والدنيا بميزان
تلك السماء التي نُلقي لهم ملكاً
فلا يربُّونه الا كشيطانٍ
تلك التي جعلوها في المنازل كال
مرآة مطروحة في دار عميانٍ
ذنبُ الرجال ولكنَّ النساء به
مُعاقباتٌ بالآلام وأشجانٍ

كمقلة العين في آلامها اعتلجت
والداء ما مس منها غير أجفان

* * *

لهفي لجوهره زهراء ما سطعت
في جيد غانية أوفوق تيجان
لهفي لريحانة خضراء ما قطعت
الا لتذبل في راحات نشوان
لهفي لغانية عذراء ما وضعت
الا بمنزل أسوء وأضغان
لكل معنى جميل ما يلائمه
كما تمازج الحان بألحان
وليس يطرب صوت الماء منحدراً
كما ترى وقعه في سماع ظمان

فيا إلهي إذا اجريتَ في قدرٍ
يوماً بأن يلتقى في الناسِ ضدَّانِ
فاجعل للطفك معني في التقائهما
كيلا يكونَ من الضدِّينَ رُوجانِ
فما خلقتَ كمثل البغض في امرأةٍ
ينالها رجلٌ يوماً بطُغيانِ
ولا خلقتَ كمثل الذل في رجلٍ
تسومه امرأةٌ سوءاً بعدوانِ

يابانياً بقلوبِ الناسِ يجعلها
قصرَ الحياة تبصره أيها الباني
أسس على الحب لا تلُق القلوبَ سُدِّي
وَضَعْ لِكُلِّ فَوَادٍ شِكْلَهُ الثَّانِي

فلست تبني سوى دار اذا خربت
أركانها خربت من كل عمران
دار السعادة دار الحب دار مئى الـ
أحباب دار الغرام الخالد الهانى

آه يا قمرى الحبيب ويا حبيبى القمر . (١) ان الحب لا
يخلق الا الحب ولكن جمالها الرائع يصور لى مقابح
الناس ومعائبهم كان عيني منذ صار فيها شيء من نور ذلك
الجمال الساطع صار فيها شيء من نور الالوهية الذى يخرج
منه كل ايسلة فجر جديد ولا يفنى . فلا أنظر الى خلقته
المعاني ولكنى أنظر الى تركيبها الخلقى ولو كانت لك أيها
القمر هذه النظرة فى شؤون الناس ورحيل الاعداء وأحوالهم
لا رتمضت واخترمك اللهم من زمن بعيد ولما بقيت الى
اليوم بهذه الطفولة الالهية التى تملأ السماء ضحكاً وغبطة .
صَبَّ ظلام الليل كله فى قلبى وقى من عداوة لئيم
نُسود وجه الدنيا فى عيني وتجعل قلبى من يأسه وانقباضه
كأنه مملوء بالدم الغليظ الفاسد الذى ركد وخبث بعد
أن سال من جروح الصداقة . ولك الله ايتها الصداقة

الشريفة في هذا العالم فلا تلم بأحد في حوادث الحياة
الا كما يلم ضيف البيداء إذ يتغطف بملاءة النهار نائماً
فمى أظلمت الفجأجُ المُسفرةُ انطلق عليه سواد. وهل
أشدُّ وأوجعُ لعمرى من سقطة انسان يتغفل عنه صاحبه
حتى يستنيم اليه ويرتبط معه على سواءٍ يثبُّ به نجاة وقد
خذه خذلاناً نازياً وقدت له عداوته؟ ومن الذي
يستطيع أن يتوقى هذه المفاجأة بل كيف يستطيع
وأية قوة في الارض تمنع سقوط أحد العدلين^(١)
المتوازنين على ظهر البعير السائر اذا خف الآخر وأخل
بالموازنة فلا يكون قد دفعه ثقله أكثر مما يدفعه الثقل
الذي فقده؟

يا لله أنجد عداوة ثابتة ولا نجد صداقة كالعداوة على
الاقول.. لقد أصبحت هذه الصداقة جسماً حياً بنوع من

(١) العدل بالكسر ما يقال له الزكبية والفرارة

الحياة المأدبة يتمثل في كل صديق فترى علامة
حياتها وقوتها في الاصدقاء أن يصفح بعضهم بعضاً بالايدي
ويدوس بعضهم بعضاً بالأرجل فكأنهم اذا اکتفوا بالمصافحة
واجتزوا ابها ماعدا ذلك خافوا على أرجل الصداقة من
الشلل إن هي مُنعت من الحركة ... أما القلب الذي تحيا به هذه
الصداقة الخالدة ... فهو الحب الثابت الذي لا يتغير ولا يتحول
ولا ينقص بل يزيد كما يصفه الاصدقاء فيما بينهم. ذلك الحب
الذي تسميه أقوالهم أسماء مُنتحلة ولكنك حين تتعرفه من
أعمالهم لا تجدها تعرف له الا اسماً واحداً وهو الطمع ...
فأضحك الآن من صداقة الناس أيها القمر الذي يعيش
بالطفولة الالهية وها أنا ناظر اليك فعمسى أن يسقط الى قلبي
شيء من هذا الضحك ، فان لم يكن فمعنى منه يجعل الفكر
ضحكاً ، فان لم يكن فلا اقل من أن يحرك في ذاكرتي
ذلك الهواء العطر الجامد في بعض زواياها فيندفع الى قلبي

بذلك الرنين الذي حفظته الذاكرة من صبحك تلك
الحسناء الفاتنه قبل ان تحقّ النوى وينصدع الشمل وأبقته
على نفسى لتسمعها منه في هذا الفراق الطويل أحياناً
الحب والأمل

الفصل الاخير

والآن أراك أيها القمر أنشأتَ تنحدر مُسْتَرَسِلاً
كأنما رفعتك الملائكة وأخذت تمشي بك الهوينا لتجعلك
في الأفق نافذةً يَسْتَطِلُّ منها وجهُ الفجر . وقد جعل
الليل ينطوي كأنه غطاء الموت تكشفه الملائكة عن
الارض وتلفه من ههنا وههنا لتتنفس الحياة من نشيتها ثم
تجمع عليه أطراف هذه القمراء ^(١) لتجرزه فيها وترجع
بالموت إلى السماء مطويًا منك أيها القمر في قطعة من
الخلود .

وتطابت النسمات من الارض خفيفةً لا تثبت كأنها
أرواح الاحلام مسرعةً في الهواء يُدافع بعضها بمضاهي

(١) القمراء ضوء القمر المنبسط المتمكن من الارض ومثله
من الشمس يقال له الضح بكسر الضاد وتشديد الحاء

تلتقى عند الأفق بَسَمَات رقيقة هادئة تبعث على القلوب
أنفاسها فتستشعر منها رَوْحَ الجنة كأنها آتية من هناك
لتكون أرواحاً للازهار العطرة التي يذبت بها ضوء النهار
الجديد .

لقد بدأت الحقيقة أيها القمر تتوارى معك في حجاب
الغيب فهلاً تلبثت قليلاً يا صديقي السماوي الذي آنت
منه معنى الخلود والذي لم أكد أصادفه حتى ملأ قلبي من
نور السماء وجمالها وجعلني أشعر بمعنى الاخلاص في الصداقة
وهو أحد المعنيين اللذين لا يشعر بهما إلا أسعد الناس في
الارض طراً . ألا وهما الاخلاص في الصداقة والاخلاص
في الحب ؟

الصداقة كما عرفت منك يا صديقي السماوي لا تكون
كذلك حتى تدع الانسان كأنه يشعر في السراء والضراء
ينفسين فيضاعف له السرور لان كلتا النفسين تطلب الزيادة

منه ويضعف عنه الهم لان كلتها تعمل لمقصه اذ هو هم
نفس واحدة توزعته نفسان . ويكون الانسان في الحالة
الاولى كأنه يتلقى رُوحَ النعمة لنفسه بروح السرور من
صديقه وفي الحالة الثانية كأنه يتلقى روحَ الجزع بروح
الاطمئنان . وان أشقى الناس من لا يستطيع أن يجد إلى
جنبه في سَوْرَةِ الجزع نفساً أخرى تجزع له باطمئنان
وسكون ليطمئن في جزعه وهي الصداقة بعينها وما يُلقَّها
إلا ذو حظ عظيم .

ولقد نادمتك منذ الليلة يا صديقي السماوي بهذا
الحديث فهل ثملتَ فِلتَ ، أم أنت قد ملتَ ؛ حاشا أن
تكون كالاصدقاء في هذه الأرض تُقَدَّرُ فيهم آجالُ
العواطف الرقيقة بالساعات فكأن الانسان يقرأ في قلوبهم
رسائلَ مُوجزة يفرغ منها قبل أن تفرغ أفواههم من
كلمات التحية والتلق وغيرها من الاشواك اللينة التي

أحاط الله بها هذا الوردُ من شفاهم...؟ ولا يكون
الرسالة منها حظ من إطالة النظر الا اذا كان فيها هم يشغل
النفس فيكون عمرها بمقدار اغتيال الفكر فيها...؟
أنا منك أيها القمر منذ الليلة كالعقل المنكش في ظل
القصيدَةِ الحكيمة من الشعر السرىِّ البليغ تُنير له الابدية
بأشعة معانيها لينفذَ بالنظرة الصادقة في اعماق الحياة
وقد نظرتُ طويلاً وملاّت عيني من نورك وجعلت
ما يعترضني معنى الابادرتُ أبدؤه النظرَ " وأرسل على
حقيقته من هذا الضياء ، وها أنا لما أكد أبلغ أقرب هذه
الاعماق من العور البعيد في قلب الانسان . ولقد أراك
مُسْتَوٍ فزاً تجمع أشعتك في هذه الأنفاس من سمات
السحر كما تجمع الحسناء أشعة فكر محبها الملهب بأنفاس

(١) أي أمدده اليه مدا

التنهيد والعتاب ، فيما إذا أستضىء فيما بقي من هذه الاعماق
الكثيرة ؟

لعل الحكمة الالهية لاتعطي للانسان الابقدار يلائم
طبعه مخافة أن تقرط عليه أو تطغى اذا حمل منها ما لا يتفق
وضعه كالحف^(١) الذي يجده المريض في ناشئة العافية
ان اقتصر عليه انتفع به وان هو اندفع يطلب المزيد منه
انتكس . والطبيعة نفسها تحق عن الانسان اكثر الحقائق
رحمة منها بالعواطف التي هي قيوام نفسه فيحن الى
الأزهار والأشجار مثلاً ولا يعلم انه ينجذب بشعوره
النفسي الى بقايا الانسان الذي اغتذت به الطبيعة في الاجيال
الغابرة وما يليها فكأنه من ذلك يازاء قبر نباتي : وإن هو
علم واكتنه وغالب الطبيعة على نفسها كشفت له هذه
الطبيعة الحقائق الاولى التي يسترها عنه جهله الانساني وهي

(١) هو النشاط يجده المريض حين يتماثل

في نفسها ظاهرة لانها تستر ماوراءها من العلم الالهي ثم
تركته عندها حائراً وأبت عليه الا ان يكون كالعريان
الذي يلبس ثوباً من الظل

فالحقيقة المطلقة كالحياة حرب لا انتصار فيها اذ
الموت فلا تضع أوزارها وانما يقع المتقدم ليتقدم المتأخر فيقف
موقفه ويسد مسده ويجاهد طويلاً أو قصيراً ثم يسقط
ولا يثبت من الحقيقة الا شيء يسير يشبهه فرق ما بين
التأخر والتقدم كما لا يثبت من الحياة الا شرف هذه الخطوة
وعارها للجريء الباسل والمفؤود الجبان .

لقد ساهرتك أيها القمر لأحداثك وناجيتك لأستخرج
الفكر من نفسي فإنه لا يستدعيه شيء كالحديث . وانتضيت
هذا الفكر لاجتلي منه الحقيقة النفسية المحجبة . وتأملت
الحقيقة لا اري ذلك الشاع الا الهى الذى لا يخالفه شيء حتى يذوب
فيه الى شعاع مثله وهو نور الحقيقة الذى رأينا في حبة القلب

فسميناه الحب . ولقد ملأت قلبي منه وأسبغته علي إسباغاً
ومددت لي فيه حتى تناوت به الجمال السماوي وجعلته في
قلبي بجانب هذا الجمال المستفيض كأنه الموجة القلقة التي
يمسك منها الساحل طرف البحر . فاذا افلت الآن وقد
أمسيت صاحب سرى وداخلة أمري أفر الكم مغلقاً وراءك باب
الحلم الذي منه يقظة الأمل في هذا القلب . وهل تاركي
أنت لا تلقى مع الصبح هذه البقايا من الأحلام تفر خفافاً
وثقالاً دون أن تضيء لي معانيها بأشعتك التي تنبعث من
مصباح الحب على كل جهة في الأرض فعسى أن تكشف
لي منها عن بقية من أحلام تلك الحبيبة التي اسرفت في
دلالها حتى إنها لو ملكت البخل لبخلت به فأبين ما فيها من
تصورات نفسها وأمزجها بنفسي ؟

أهليت الهواء الذي تتناثر فيه قبل الحسنة وليت نسيم
الصبح الذي يحمل الى الغيب أحلامها مما يمكن أن يحرز

ويُدخِرُ إِنْ كَانَ فِي الْحُبِّ شَيْءٌ أُسْمِيَ مِنَ الْخُلُودِ نَفْسَهُ ،
وَلَكِنْ هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ فَمَا رَأَيْتَ كَالْحُبِّ لَا يَمْلِكُ مِنَ الْمَاضِي
إِلَّا إِذَا كَرِهَتْهُ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَرُدُّ عَلَيْهِ لِدَاتِ الْمَاضِي كُلِّهَا
حَسِرَاتٍ . وَإِنَّ الظَّفَرَ بِزَهْرَةٍ نَاضِرَةٍ مَعْقُودَةٍ فِي غَصَنِ
قَدْ ذَوَى وَتَحَاكَّتْ وَرَقَهُ لِأَيْسَرِ مَنَالًا مِنْ بَقَاءِ قَبْلَةٍ وَاحِدَةٍ
فِي ذَاكِرَةِ الْحُبِّ حَافِظَةً نَضْرَتِهَا وَعَطْرَهَا مِنْ أَنْفَاسِ
الْحَبِيبَةِ وَرِيقِهَا .

هَكَذَا كَتَبَ عَلَى الْحُبِّ أَنَّهُ مِنْ تَوْلَادِهِ فَانِهِ يَدْعُهُ عَلَى
حَالٍ كَأَنَّهُ فِيهَا رُوحٌ لِجَسْمِهِ لَهُ فَيُحَايِصِبُ مِنْ لَذَّةِ أَوْ أَلْمِ
فَإِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهُ إِلَى اللَّذَّةِ وَالْأَلْمِ جَمِيعًا فَيَكُونُ الْمَاءَ الَّذِي يَذُوقُهُ
وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ خَصَّ الْمُحِبُّونَ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ بِكَثْرَةِ
الشُّكْوَى لِأَنَّهُمْ يَسْتَلْذُونَ أَلَامَهَا وَالْعَاشِقُ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَنْفَسَ مِنْ شِكَاةِ أَوْ لَا يَجِدُ مَنْ يَسْتَرْجِعُ إِلَى بَيْتِهِ لَا عَجَبَ الشُّكْوَى
مِمَّا بَرِحَ بِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الْمِثَالُ الْإِنْسَانِي الشَّاذُّ الَّذِي يُمْكِنُ

أن يتعرف منه العلماء معاني الجنون مع بقاء عقله فهو
المجنون العاقل .

لشدهما أحاول أن اصف الحب وصفاً طبيعياً يدينه
من هذه الأفهام الغليظة الجاسية تريد ان يخلق فيها
الحب من اوصافه لتفهم الصفة والموصوف معاً . . . وان
الانسان ليستطيع ان يحيل الجمر فيجعله رماداً ولكنه متى
همد الجمر بقى رماده كأنه همود القدرة الانسانية نفسها فلا
سبيل من بعد الى بعث الحياة النارية فيه . وقد يما كان
هذا من شقاء اهل العقول في الناس فان المصلح يستنفد
قوى عقله فيهم ولا يزال يأتيهم بكل شيء عفواً سهلاً لا
احتباس في امر حتى يأتي الموت على نفسه ثم لا يكون الا
ان يعرفوا بعد ذلك انه كان مصلحاً . . . كالذي ينظر حتى
يحمور الجمر لعينيه رماداً فيعرف من الرماد انه كان جمرأ .
ولو فهم الناس الحب على حقه لاستجدوا لانفسهم عقولا

فإن الطبيعة نفسها متى أرادت أن تجدد إنساناً لتبعث منه
رجلا من رجالها شاعراً أو حكيماً أو بطلاً تجلت على نفسه
في صورة إحدى الحسان وتركته محبباً فلا تكون آلام
الحب وآماله في باطنه الا تغييراً نفسياً كأنه على ذلك إنما
يهدم ويبنى .

وأعرف رجلاً من الناس كأنه نزغة شك بين أهل
العزائم وهو من أولئك الذين لا يعرفون الحب الا باعماً
من العيب وباطلاً من البطالة وقد جعل يصفه مرة بأنه
جنون أُنوع من الجنون وان الشباب ينتحر به انتحاراً
الذيذاً كما ينتحر الصينى بالافيون إذ يستل روحه فيتأمل
في جوانبها ويتملي بإشراقها ويلذ هنيهة بأجمل ما صنع الله ثم
يردها مريضة كليلة قد حال من الخمود حالها ثم يفتيق
وينبعث كأنه مطرود من السماء . وراى صامتاً كأنما تبعثرت
نفسى^(١) فمر في هذيانه عجايب راث كأن شيطان البغض

(١) أى جاشت وغثت وانقلبت ونحوها

ينفت على لسانه وكأنه ليس في الارض حب غيرى فليس فيها
عادل غيره وأنا في كل ذلك أصعديه وأصوب فلا تأخذ منه
عيني الارجلا موضوعاً في جلده وثيابه كما يطمر لوح الشالج
في اللقائف والقشور .

الحب جنون ولكن النبوغ جنون كذلك . اما
الشباب الذى ينتحربه فانما هو ذلك الشاب الهرم الفانى
الذى يعدل في بعض النفوس الضعيفة ذلك الهرم الشاب .
في بعض الشيوخ المتصايين : وليت شعري ما عيب الغذاء
الجيد اذا تناوله المحموم فكان غذاءً لعلته وحال منها الى
علة جديدة ؟

مثل ذلك البغيض يرى الدنيا كأنها معدة واسعة وكأنه
فيها قوة من قوى الهضم . . . فالمعاني التى لا مادة فيها هى
عنده بسبيل المادة التى لا معنى لها . ولن يستطيع أن يفهمه
معنى الحب الصحيح بما نشر به نفسه الامن كان فيه شىء

من القوة الخالقة إذ لافرق بين من يقدر على ان يجعل
المعدة قلباً ومن يقدر على ان يجعل مثل هذا محباً ومن يقدر
على ان يجعل انساناً من الناس كأنه أحد الملائكة الذين
لا يأكلون ولا يشربون... ومهما جاهدت به فانك لا تزيد
الا يُبساً وموتاً كأشعة الشمس تُميت الزهرة التي نفدت
مادتها وهي نفسها التي كانت تحييها من قبل.

لا اقتص عندى من الرجل الذى يحاول التمام فيتحول
الى معنى واحد فيكون عقلاً كاه او قلباً كاه او بطناً
كاه لانه لا يتم بواحدة من تلك الا اذا كان فيه العالم كاه
انما هي ثلاثة : المبدأ الشريف للنفس والفكر السامى
للعقل والحب الطاهر للقلب. هذه هي معانى الكمال الانسانى
وإذا أنت رأيت من ينتحل الحب جباناً بكيئاً متبلاً
كأنه حشرة فى ترابها ورأيت يبكى بجوارحه وأعصابه المتألماً
بدموع أقيح من صبيب العين الرمداء يغسل بها الحب ليجعله

طاهر أبز عمه كما يُفَسَل الميت.. فاعلم انه راجع من آخر الطريق
وهو يحسب ضلّة انه في أولها لأن عواطفه قد هزمت
وأقبلت تَدُلُّ في سبيل الحياة. ولا غرّ وفانك ترى الطفل
يتدفع مسرعاً كأنه واثب الى المستقبل والشيخ يتسكع
مبطناً كأنه منقلب منه والحب والحياة شبيهان في الطفولة
والهرم.

آه ما بعد ما أحاول وصفه فاننا نلتقي الفاظنا الكثيرة
في هذا الشعور العميق الذي نسميه الحب ونظن اننا
استخرجناه فيها وأن الالفاظ قد لبسته حتى لافضلة
منه. وما أشبه ذلك من عملنا بصنيع رجل يُدلى في أبعاد
غور من المحيط جبلا قد طاول به شعاع الشمس حتى اذا
هبط القاع جذبه فلا يجد فيه من المحيط كله الاقياس
العمق في لجة واحدة يوميء اليه بلل قليل من نضح الماء.
ماذا تبلغ العبارة من حب تخرج كل أنة فيه

وكأنها صوتُ انقطاع خيط من خيوط الحياة في القلب ؟
وماذا تبلغ العبارة من حب يتألم صاحبه وهو يجهل
سبب ألمه فيحسبه بعض الحمقى يتألم بلا سبب وهو في رأى
نفسه كأنه يتألم بكل أسباب الآلام ؟

بل ماذا يبلغ الكلام من حب يجعل الحياة كأنها كلمة
رضى في شفتى الحبيبة ويجعل الحبيبة نفسها كأنها كلمة رضى
في شفتى الحياة ؟

وترى ماذا تبلغ عبارتك أيها اللغوى من حب تتجلى
به الحسنة الفاتنة على محب دنف يراها محاطة بأشياء لا
يعرف ما هي الا انها تجعل لتلك الحسنة في عينيه مهابة الرجاء
الذى يوشك ان ينقطع ، والخصوف الذى يوشك ان يندفع
وتظهر هاله كأنها مثال لثورة العقل الانسانى الملتهب .
وتجعل الفاظها ومعانيها ولمحاتها كأنها أضواء منبعثة من
عالم روحى هو اقرب الاشياء وابعدها كتخييل الحقيقة
والحقيقة نفسها ؟

ثم ماذا يبلغ شعرك أيها الشاعر من حب انت تحتال
على تمثيله بالشعور الذي تستوحيه من كل ما هو جميل في
السماء والارض لتصف بكل ذلك فكراً في رأس رجل
وعاطفة في صدر امرأة؟

ضع اللغات كلها في فم الحب فان خفقة واحدة من
قلبه ستجعلها كلها بلا تأثير كأنها صمت ناطق لأن هذا
القلب هو الساحل الذي تقف عنده أمواج الانفاذ
بطبيعتها أو بطبيعته ولوترامت من جوانب هذا الخضم
الذي يجيش بالحياة. ولا ارى غير شديين لا يتخطى اليهما
عقل الانسان ولا تنالهما لغته : ما وراء القلب وما وراء
الطبيعة.

الحب! احدي كلمتين هما ميراث الانسانية وهدية التاريخ

والطرفان اللذان تلتقي عندهما السماء بالارض

كلمات ليس لهما من المعاني غير الحقيقتين الخالدين
حقيقة الالهية في الروح وحقيقة الانسانية في القلب :
هما في الدين والحب . خرجا من الجنة مع ادم وحواء
فكان الدين في تقوى آدم وتوبته وكان الحب في جمال
حواء ودموعها .

فيا ايها القمر الذي اشرق لا ادم وحواء ليلة هبوطهما
فكافاه بكل ما قدر اعليه وهو ذلك الابتسام الذي يشبه نوراً
منبعثاً من قرين . وبقيت فيه من يومئذ رقة الفضيلة ومسحة
الجمال وجاذبية الحب وبقية من تلك التعزية الاثوية التي لا
تزال تحتها ارواح العاشق في كل بقعة طلعت عليها من
الارض .

ايها القمر الذي لا يزال يشهد من كل عاشقين آدم
وحواء ولا يزال يبعث في كل دمعة من دموع الحب روحاً

نورانية من شعاعه تبث فيها انفساً من حياة الاحلام
وتجعل العاشق يرى كأن هذه الأحلام اللذة المؤلة تنصب
من أجفانه المغرورقة وهو يقظان لان حبيته الحسنة تبخل
بها عليه وان كانت أو هاماً .

أيها القمر الذي هو قلب الليل ممتلئاً من ابتسام
النية الطيبة فلا يزال الليل رحيماً حتى بالمجرمين واهل
الآثام .

أيها القمر الذي هو تاريخ النور على الارض والذي
يشرق على الطبيعة بجلال وهيبه وكانه يرسل الى هذه الارض
في كل شعاع نظرة ملك من الملائكة لتعزية قلب من
القلوب المتأللة المحزونة .

أيها القمر الجانح الى المغيب في سماء الفجر كأنه
جناح الحب يخفق به في الفضاء على هواء عليل من الزفرات
والتنهد

(بيان الخطأ والصواب)

صواب	خطأ	سطر	صفحة
روحه	بروحه	٧	٣
...	في	١٢	١٢
الحس	الحسن	٧	١٤
يذبح	يذبح	٢	١٦
فاطعها كأنها أرادته	فاطعها أرادته	٤	٢١
فأذا	فذا	٩	٢٢
قلبه	بقلبه	١	٢٥
والله	والا	١١	٢٨
العذبة	العذبة	٣	٢٩
ولياخذ	ولياخذ	١١	٣١
تتراكم	تتراكم	١	٣٤
يجيء	يجيء	٣	٣٥

صواب	خطأ	سطر	صفحة
مزيج	مزيج	١٠	٣٩
قَابِك	قَابِك	١٥	»
تقيض	نقيض	٧	٤٤
تتنفس	تتنفس	١٣	٤٤
انتهينا	اتمهينا	٨	٤٧
صدفة	صدفة	٧	٥٤
منزلة	منزلة	٧	٥٧
الملك	المك	٤	٥٨
زلزلت	زلزلت	٨	»
فأنك	فاتك	٢	٥٩
تقنه	نقنه	٢	٦٠
تقرض	نقرض	٨	٦١
غمغمة	غمغمة	٩	٦٤

صواب	خطأ	سطر	صفحة
.....	على	٣	٦٥
يحيط	يحيط	١٠	»
يتبَّعُ	يتبَّعُ	١٣	٧٨
الضغرى	الضغرى	١٠	٧٩
الفلسفة	الفلسفة	١١	»
يتداخل	بتداخل	١٢	»
إلا	لا	٥	٨٧
كأنما	وكأنما	٩	٨٩
يقراً	يقر	٨	٩٢
لثريه	لثريه	١٤	٩٣
تسكاد	تسكاد	٩	٩٨
مشتعلة	مشعلة	٢	١٠٥
غلبة	غلبة	١٠	١٠٦

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠٧	٤	{ يصله مرصده فلك } { الكوكب نفسه }	{ يصله بها وكان } { مرصده فلك }
			الكوكب نفسه
١٠٩	٣	انكفوا	انكفوا
١١١	١	لستيقنوا	لستيقنوا
١١٨	٤	سالت	سألت
»	١٣	وكاف	وكان
١٢٣	١٢	تنزى	تنزى
١٢٤	٤٠	نجيش	نجيش
١٢٨	١	صلب	أصلب
»	٧	تحلق	تحلق
١٢٨	٩	أريجا	واريجا
١٢٩	٧	معى	معى
١٣٤	٨	اللدة	اللدة
١٣٦	٥	الصباح	الصباح

صواب	خطأ	سطر	صفحة
قدر	قدر	٧	١٣٩
نكتب	نكتب	٨	١٤٠
واذا	اذا	١٤	»
فلتكن	فتكن	١	١٤٢
الطروب	المطروب	٦	١٤٤
الغصون	الغصون	٩	»
السماء	السماء	١٠	»
سغار	اسعار	١٤	١٤٨
واءسفاً	واسفاً	٢	١٥٠
للأحناء	للأحناء	٧	١٥١
منفذا	منفذ	٤	١٥٢
فالنظرة	فالنظر	١٥	١٥٢
أصغر	أصغر	٣	١٥٣
ربيع	ربع	٧	١٥٣
الغني	الغني	٢	١٥٥

صواب	خطأ	سطر	صفحة
فأخبرى	فاخبرى	١٢	١٥٦
القبول	القيور	٣	١٥٩
كالهم	كالهم	١٢	١٦٤
ياقوى	ياقوم	٥	١٦٦
يثب ثم به	يثب به	٥	١٧١
المادية	المادية	١	١٧٢
إختيال	اغتيال	٣	١٧٧
أقرب	اقرب	٩	١٧٧
الجالسية التي تريد	الجالسية تريد	٤	١٨٢
بسبيل من المادة	بسبيل المادة	١٣	١٨٤
فَضْلَةٌ	فضلة	٩	١٨٦
والخوف	والخصوف	١١	١٨٧
امراة	إمرأة	٤	١٨٨
هما الدين	هما في الدين	٣	١٨٩
تُحْسِبُ أَرْوَاحَ	تحتها ارواح	١٠	١٨٩
أعنف	اعنف	٣	١٩١

مدنية العرب
في الجاهلية و الاسلام

—١٤٤٣٥٤٣—

تأليف

محمد رشدي الخبير

—١٤٤٣٥٤٣—

٦ ثمنه ستة قروش صاغ ٦



**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

BJ
1291
.R3
1922
c.1